يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة لقصة
" ايفان ترجنيف " الطويلة

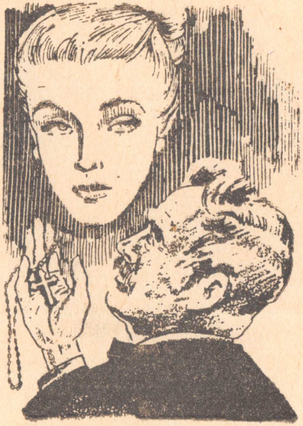


مياه الربيع

ايفان ترجنيف

مياه الربيع

الجزء الثانى



LES EAUX PRINTANIERES

PAR

IVAN TOURGUÈNIEV

الثمن ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب السادس والخمسون

مياه الربيع

الجزء الثانى

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يرليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عدد، من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .
ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

موجز ما نشر فى العدد السابق

عاد « سانين » الى غرفته وقد استبد به شعور بالقلق والاعياء والاشمئزاز من الحياة . وما أن صرف الخادمة حتى ارتمى على مقعد قرب المدفأة ؛ وأخذ يفكر فى حياته الماضية وسنوات عمره الاثنتين والخمسين التى انصرمت هباء ! .. وبعد قليل نهض من مقعده وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا . ثم أخذ ينبش أوراقه ورسائله القديمة ، وعبث بيديه فى أحد الادراج دون قصد ، فاصطدمت أصابعه بعلبة صغيرة ، ما ان فتحها حتى وجد داخلها صليبا صغيرا من العقيق !.. وفجأة عادت الى ذاكرته احداث انقضت منذ مدة طويلة :

***

كان سانين فى الثانية والعشرين ، حين مر بمدينة (فرانكفورت) فى طريق عودته من ايطاليا الى روسيا . واذ كان أمامه وقت طويل يجب ان يقضيه قبل موعد قيام القطار ، فقد أخذ يتسكع فى شوارع المدينة على غير هدى . وفجأة لمح فى أحد الشوارع لافتة عليها عبارة : (حلوى ايطالية . « جيوفانى روزيلى ») . فدخل ليشرب كأسا من شراب الليمون . غير أنه لم يجد أحدا فى الحانوت . وفجأة اندفعت من الغرفة الداخلية للحانوت فتاة فى التاسعة عشرة ، بارعة الجمال ، لم تكد تلمحه حتى هرعت اليه وجرته الى داخل الغرفة مستنجدة !

وهناك رأى « سانين » فتى فى نحو الرابعة عشرة ، مستلقيا على أريكة قديمة ، فاقد الوعى . وأخذت الفتاة تندب أخاها قائلة انه كان يتحدث اليها منذ لحظة ، واذا به يسقط فجأة بلا حراك . ثم استدارت نحو رجل عجوز ، قصير القامة ،

وسألته بالايطالية عما اذا كان قد استدعى طبيبا ؟ .. فأجابها بقوله انه أرسل الخادمة « لويزا » للطبيب !

واذ ذاك طلب سانين من العجوز « بانتاليون » ان يحضر له فرشاة ، وأخذ يدلك بها صدر الفتى ويديه بكل قوته .. فلم يمض وقت طويل حتى أفاق الفتى وعادت الدماء الى وجهه الشاحب ! .. وفى تلك اللحظة ، دلفت الى الغرفة سيدة عجوز يعلو وجهها الاسمر شعر أبيض بلون الفضة ، وأخذت تستفسر فى قلق وجزع عن جلية الامر . ثم دخل وراءها طبيب كهل تقدم نحو الفتى وكشف عليه . ولما رأى الفرشاة قال أن عملية التدليك التى قام بها سانين قد انقذت حياة الفتى ، فاندفع الجميع نحو « سانين » معربين له عن مدى تقديرهم وامتنانهم . وطلبت منه الفتاة الجميلة - التى كانت تدعى « جيما » - ان يعود الى منزلهم بعد ساعة ، حتى تتمكن أمها « مدام روزيلى » من أن تشكره على ما أسداه اليهم من يد ، فلم يجد « سانين » مفرا من القبول !

وعاد سانين بعد ساعة ونصف الى الحانوت ، حيث استقبل بترحيب حار .. وقدمت له « جيما » كأسا كبيرة من الشيكولاته ، وأخذت « مدام روزيلى » تجاذبه أطراف الحديث ، فلم يمض وقت طويل حتى كان سانين يعرف جميع أحداث حياتهم .. لقد حضر زوجها « جيوفانى روزيلى » الى فرانكفورت منذ خمسة وعشرين عاما ، حيث افتتح حانوتا لبيع الحلوى ، وانجب الفتاة « جيما » والفتى « ايمليو » ، الذى أنقذ « سانين » حياته اليوم !

ثم تعرف « سانين » الى « بانتاليون » ، الذى كان فيما مضى مغنيا فى الاوبرا ، لكنه ختم حياته الفنية منذ مدة

طويلة ، وأصبح صديقا للأسرة وخادما لها فى نفس الوقت !

وبعد فترة احس «سانين» انه كان بين أفراد تلك الأسرة كأنه فى بيته ، فأخذ يجيب على أسئلة الام المختلفة ، ويمدهم بالمعلومات الصادقة والدقيقة عن وطنه (روسيا) .. وانتهت السهرة بأن قام « بانتاليون » بتمثيل دور كان يقوم به على المسرح فى ايطاليا ، ثم أخذت «جيما» تقرأ مقطوعات فكاهيه للشاعر الألمانى « مالتس » .. وكان « سانين » لا يكل من الاعجاب بتلك القارئة الفاتنة ، حتى غاب عن ذهنه ان يلحق بقطار الساعة العاشرة ! .. ومن ثم قرر أن يبقى فى (فرانكفورت) ويبعث الى صديق له فى برلين كى يقرضه بعض المال !

وفى اليوم التالى ، زار سانين فى فندقه الفتى « ايميليو » ، بصحبة شاب طويل القامة ، أنيق الهندام ، مصفف الشعر ، قدم نفسه اليه قائلا انه « كارل كلوبر » خطيب جيما ، وانه يعمل مدير الباعة فى محل (الزايل) . وقد جاء ليقدم لسانين احترامه وليعبر عن شكره للسيد الغريب الذى استدى الى شقيق خطيبته خدمة لا تنسى ! .. ثم دعاه الى أن ينضم اليهم فى رحلة قرروا القيام بها صباح يوم الأحد الى بلدة (سودن) ، وهى ضاحية من ضواحى (فرانكفورت) .

وقبل « سانين » الدعوة ، وانسحب « كلوبر » مختالا فى ثيابه الزاهية ، تاركا « ايميليو » الذى آثر ان يقضى بعض الوقت مع سانين ، بعد اذ افتتن به الفتى أشد الافتتان ، واحس برغبة قوية تدفعه الى البوح اليه بأسراره .. وبالفعل افضى الى صديقه الجديد برغبته فى العمل على خشبة المسرح . غير أن أمه ـ بتحريض من السيد كلوبر ، خطيب جيما ـ كانت تهيؤه للعمل فى التجارة !

وفى يوم الأحد ، استقل سانين بصحبة جيما والسيد كلوبر واميليو والعجوز بانتاليون عربة أقلتهم الى (سودن) ، حيث قاموا بنزهة طويلة على الأقدام . فلما أزفت ساعة الظهيرة قصدوا الى أحد المطاعم .. وبينما كان سانين يراقب « جيما » وهى تتناول الطعام فى صمت ، لاحظ عددا من الضباط يجلسون الى مائدة مجاورة وقد أفرطوا فى تناول الشراب ، فكان أحدهم لا يحول بصره عن « جيما » ، وبدا كأن جمالها قد بهره ! .. وفجأة نهض عن مقعده واقترب من مائدة سانين ، ممسكا كأسه فى يده ، وصاح قائلا : « أشرب نخب أجمل بائعة عصير ليمون فى فرانكفورت ، وفى العالم بأسره ! » ، ثم اختطف وردة كانت على المائدة أمام جيما !

وكان التصرف الطبيعى الذى تنتظره جيما من السيد كلوبر ، بوصفه خطيبها ، ان يرد على تلك الاهانة التى وجهها الضابط اليها .. غير انه اكتفى بأن نهض عن المائدة وأمر باعداد العربة تأهبا للانصراف ! .. لكن سانين تقدم نحو مائدة الضبط وأخذ يلومهم على ذلك التصرف الذى لا يليق بمرتبتهم ، ثم قدم لهم بطاقته وعنوانه وقال للضابط الذى أهان « جيما » انه سوف يكون على استعداد لمبارزته فى الوقت الذى يشاء !

وتظاهر السيدكلوبر بأنه لم يلحظ ما فعله سانين ، وأخذ يستحث الحوذى على الاسراع فى اعداد العربة ! .. وبدا واضحا أن « جيما » كانت تعانى ألما نفسيا شديدا ، وتولاها شعور بالخزى تجاه خطيبها ، حتى لم تعد تطيق الاستماع الى حديثه ، وراحت ترنو الى « سانين » بنظرات متوسلة ، دون أن تنبس بكلمة !

وفى اليوم التالى زار أحد أولئك الضباط « سانين »

واتفق معه على شروط المبارزة..وكان على سانين ان يحضر شاهدا معه ، ولما كان لا يعرف أحدا فى المدينة ، فقد هداه تفكيره الى أن يعهد بتلك المهمة الى «بانتاليون» ، الذى تردد فى القبول بعض الوقت ، غير انه وافق اخيرا ، وقد عاد الى ذاكرته الدور الذى كان يقوم به على المسرح ! .. وطلب منه سانين ان يكتم الامر عن جيما وباقى أفراد الأسرة !

وفى المساء قضى « سانين » بعض الوقت فى زيارة أسرة « روزيلى » ، فأخبرهم انه قد سوى الامر مع الضابط وانه لن تكون هنالك أية مبارزة . وعند انصرافه راى احدى نوافذ المنزل تفتح وصوت هامس يناديه باسمه ، فاقترب من مصدر الصوت واذ ذاك لمح جيما واقفة فى النافذة ، وقالت له انها ظلت طوال النهار تريد أن تعطيه شيئا ، لكنها لم تجرؤ .. ثم عجزت عن متابعة الكلام . وفى تلك اللحظة هبت ريح عاتية وزمجر الرعد ، فسرى الخوف الى قلب جيما وتشبثت بكتفيه ، ثم ادنت رأسها من وجهه ، فلم يملك سانين أن مر بشفتيه على خصائل شعرها التى دفعتها الريح فوق صدره .. واذ ذاك مدت الفتاة يدها الى صدرها وأخرجت وردة ذابلة دفعت بها اليه .. وتبين سانين انها كانت الزهرة التى استردها من الضابط !

وفى فجر اليوم التالى خرج سانين وبانتاليون ، الذى ارتدى ملابس أنيقة تليق بشاهد المبارزة ، فى طريقهما الى الغابة حيث مكان اللقاء بين سانين وغريمه الضابط .. وفى الطريق خانت بانتاليون شجاعته وأخذ يلوم نفسه على قبوله القيام بهذا الدور .. غير أن سانين أخذ يبث فيه شيئا من الشجاعة والحماسة .

والآن تستطيع أن تتابع قراءة بقية القصة :

مياه الربيع

- ٢٢ -

كان المكان الذى تقرر أن تجرى فيه المبارزة يبعد عن (هاناوا) مسافة ربع ميل . وكان الرجلان - كما توقع بانتاليون - أول الواصلين. فتركا العربة عند طرف الغابة ، وتوغلا فى الظل الكثيف الذى يخيم بين الأشجار المتراصة . وراحا ينتظران ما يقرب من الساعة .. ولم يشعر سانين بطول الوقت . اذ طفق يتمشى فى الممر الضيق مصغيا الى تغريد العصافير ، ويتابع بنظره طيران الفراشات الصغيرة ، محاولا الا يفكر فى شىء البتة : على عادة أكثر الروس فى مثل هذه الظروف !

وفجأة لمح احدى أشجار الزيزفون منقلبة على الأرض ، وقد حطمها أعصار البارحة على ما يبدو ، فدفعه منظرها الى أن يفكر متأملا : «ان الشجرة تموت، وأوراقها تجف !». ثم تساءل : « ترى أهذا نذير شؤم ؟ ». ثم اخذ يصفر ويقفز فوق شجرة الزيزفون ، متابعا سيره فى الممر الضيق . وكان بانتاليون يتململ ويتذمر ، ويهاجم الألمان وهو يحك ظهره ويديه . وكان الانفعال يجعله يتثاءب ، فكان التثاؤب يضفى على وجهه الصغير المتجعد منظرا مضحكا . وكان سانين - اذ ينظر اليه - لا يسعه أن يكتم ضحكاته الا بصعوبة ومشقة .. وما لبث الرجلان - آخر الأمر - ان سمعا قرقعة عجلات على الطريق الرئيسى. فصاح بانتاليون قائلا : «لقد وصلا!». وراح ينصت الى صوت العربة ، وقد نصب قامته فى عصبية سرعان ما علتها ببرودة الصباح ، فقال : «انه لبرد شديد!».

وكانت أعشاب الارض وأوراق الأشجار مبللة بندى غزير ، وكان الدفء قد بدأ يتسلل الى الغابة !

وان هى الا لحظات حتى وصل الضابطان ، يتبعهما رجل بدين قصير ، يدل مظهره على البرود حتى ليوشك أن يكون نائما ! .. لقد كان طبيب الفرقة . وكان يحمل باحدى يديه أبريقا مملوءا بالماء ، وقد علق على كتفه اليسرى كيسا متدليا يحتوي على أدوات الجراحه ولفائف التضميد. وكان يسهل على من يراه أن يدرك أنه قد ألف ذلك النوع من النزهات ، وأن تلك السفريات الصباحية كانت تدر عليه أكثر أرباحه ، اذ كان يتقاضى عن كل مبارزة ثمانية جنيهات ، يدفع كل من المتبارزين نصفها . وكان السيد فون ريشتر يحمل صندوق المسدسات . أما السيد فون دنهوف ، فكان يمسك بسوط راح يديره بيده ، وكان واضحا أنه انما يفعل ذلك من قبيل الأناقة .. وهنا همس سانين فى اذن رفيقه :

ـ اسمع يا بانتاليون ، اذا سقطت ـ وكل شيء يمكن أن يحدث ـ فان فى جيبى لفافة صغيرة فيها زهرة .. فأرجو أن تحملها الى الآنسة جيما . هل فهمت ؟ أتعدنى بأنك ستنفذ وصيتى ؟

فنظر اليه الايطالى العجوز نظرة حزينة ، وهز رأسه كأنما ليقول « نعم » . لكن الله وحده يعلم ما اذا كان قد فهم حقا ما طلبه منه سانين !

وتبادل الخصمان والشاهدان التحية المتعارف عليها . وكان الطبيب هو الشخص الوحيد الذى لم يكلف نفسه

حتى عناء تقطيب حاجبيه ، فقد جلس على العشب وهو يتثاءب كأنه يقول : « أنا لا أهتم كثيرا بهذا التصنع ! » .. واقترح السيد فون ريشتر على السيد تشيبادولا أن يختار الموقع ، فأجابه هذا بلغة متعثرة : « افعل ما بدا لك ، وسأنظر فى الامر ! » . فبادر السيد فون ريشتر يبحث فى الغابة عن مكان للمبارزة ، فاكتشف بقعة تغطيها الأزهار ، فعكف على قياس المسافة بخطاه ، وتعيين الحدود بقطعتين من الخشب غرسهما فى ذلك المكان نفسه . ثم أخرج المسدسين من الصندوق ، وجلس القرفصاء ، فشحنهما بالرصاص . وبدا انه يحمل نفسه كثيرا من العناء ، اذ كان لا ينقطع عن تجفيف العرق المتصبب من وجهه بمنديله الابيض . وكان بانتاليون يتابعه خطوة بخطوة ، ويبدو عليه أنه يعانى بردا شديدا .. وفى تلك الاثناء ، كان الخصمان يقف كل منهما بعيدا عن الآخر ، كأنهما تلميذان عاقبهما المعلم لذنب اقترفاه !

وجاءت اللحظة الفاصلة . فاتجه السيد فون ريشتر الى بانتاليون قائلا له انه ، بوصفه أكبر الشاهدين سنا ، يقع عليه — وفقا لقوانين المبارزة — عبء دعوة الخصمين ، قبل اطلاق الاشارة ، الى المصالحة . واستطرد يقول :

— ان هذا الاقتراح ، وان يكن يرفض دائما ، الا انه يحرر نفسك من التبعة نوعا ما ، حين تقوم بهذا الاجراء الشكلى .. وقد جرت العادة على أن يضطلع بهذه المهمة « الشاهد المحايد » ، أما وأننا يعوزنا مثل هذا الشاهد ، فاننى اتنازل عن هذه الميزة لزميلى المحترم !

على أن بانتاليون الذى كان قد استطاع أن يحتمى وراء دغل من الأدغال حتى لايرى الخصم ، لم يفهم ، فى أول الأمر، شيئا من خطاب السيد فون ريشتر ، خاصة وأن الضابط الشاب كان يخرج الكلام من أنفه . لكن بانتاليون ما لبث أن وثب من مكانه ، وتقدم الى الامام بسرعة ، وضرب على صدره عدة مرات ، وهو يصيح بصوت أجش :

ـ هـ .. هـ .. يا .. هيا ! .. هذا عمل وحشى ! .. فحرام أن يقتتل شابان مثلكما .. ان هذا من وسوسة الشيطان .. هيا .. هيا !

فسارع سانين يقول :

ـ اننى أرفض أية مصالحة !

ـ وأنا كذلك !

اذ ذاك أصدر فون ريشتر أمره الى بانتاليون الذى طاش صوابه :

ـ أطلق اذن اشارة بدء المبارزة !

فهرع الايطالى بسرعة الى ما وراء الدغل ، ومن هناك ، وقد انحنى نصفين ، وأغمض عينيه ، وأشاح بوجهه ، صاح يقول فاغرا فاه : « واحد .. اثنين .. ثلاثة ! » . **فأطلق سانين رصاصة قبل خصمه ، ولكنه أخطأ واستقرت الرصاصة فى جذع شجرة . وأطلق البارون رصاصة بعد سانين فورا ، ولكنه تعمد أن يطلقها فى اتجاه جانبى ، وفى الهواء !** .. وساد الصمت لحظة ، لم يتحرك أحد خلالها . ثم أطلق بانتاليون زفرة خفيفة . وقال دنهوف :

ـ هل يجب أن استمر ؟

ـ لماذا أطلقت الرصاص فى الهواء ؟

ـ هذا أمر لا يخصك ..

ـ وهل ستطلقه فى الهواء مرة أخرى ؟

ـ ربما .. لا أدرى !

وتدخل شاهد البارون بين الفريمين قائلا :

ـ معذرة أيها السيدان ، معذرة .. فانه لايجوز للمتقاتلين أن يتبادلا الكلام فى موقع المبارزة .. فذلك مخالف للقواعد !

فقال سانين :

ـ أنا أتنازل عن طلقتى الثانية !

ثم القى بمسدسه على الأرض. واذ ذاك ، هتف دنهوف :

ـ وأنا أيضا !

وألقى بسلاحه بدوره على الأرض ، ثم أضاف :

ـ الان أستطيع أن أعترف بأننى أخطأت فى ذلك اليوم !

وبعد تردد قصير ، مد يده بحركة غامضة نحو سانين ، فاقترب الشاب الروسى من خصمه ، وصافحه . وتطلع الشابان كل منهما الى الآخر ، وابتسما ، ثم احمرت وجنتاهما . فصاح بانتاليون كالمسعور ، وهو يضرب كفا بكف : « مرحى ، مرحى ! » . وهرع مرتعشا نحو الدغل ، بينما كان الطبيب الذى جلس على جذع مقلوب ، ينهض من مكانه ، ويفرغ جرة الماء ، ويتجه نحو الطريق بخطوات متراخية .. وهنا قال فون ريشتر : « لقد ارضى الشرف ، وانتهت المبارزة ! » .

وبعد أن تبادل سانين التحية مع الضابطين ، استقل عربته. وكان يحس - دون أن تكتنف شعوره لذة أو غبطة - أنه أكثر ارتياحا ورضى مما كان ، شأنه فى ذلك شأن من فرغ من عملية جراحية أجريت له . ولكن شعورا بالعار كان يعكر عليه - مع ذلك - صفاء نفسه. لقد كانت المبارزة تمثيلا ، وكذبا ، وتواطؤا ، وسخفا ، وكأنها مجرد مزاح طالب أو ضابط .. وتذكر الطبيب البارد القلب ، وتصور ابتسامته وهو ينظر اليهما بعد المبارزة ، وقد أوشكت ذراعاهما أن تتعانقا !.. وتذكر بانتاليون وهو ينقد الطبيب أربعة جنيهات .. لقد كان الامر كله خاليا من الجد !

وكان سانين لا يشعر بشىء من الاعتزاز . ولكن ، ماذا كان عساه ان يصنع ؟ اتراه كان يستطيع أن يسكت على وقاحة الضابط الشاب ؟ .. أكان يمكنه أن يتصرف تصرف كلوبر ؟ .. لقد دافع عن جيما ، وانتقم لها ، ومع ذلك كان لا يزال يشعر بضيق وانقباض فى نفسه . أما بانتاليون فقد أحس بالنصر ، واستولى عليه الزهو فجأة ، حتى بدا كقائد مظفر ينظر حوله فى رضى واعتداد . فراح يثنى على سلوك سانين أثناء المبارزة ، فى كثير من النشوة والحماسة . وكان يسميه بطلا ، وهو يصم أذنيه عن اعتراضات الشاب ، ثم أخذ يشبهه بتمثال من المرمر أو البرونز ، بل بتمثال القائد فى « وليمة بطرس » ! .. واعترف بأنه ، قد شعر هو نفسه بشىء من الانفعال. وقال لصديقه : « أنا فنان عصبى .. أما أنت ، فابن الثلوج وصخور الجرانيت ! » . وأصبح سانين

لا يدرى ماذا كان عليه أن يصنع حتى يهدىء هـذا « الفنان العصبى المزاج» الذى كانت حماسته لاتنفك تزداد اشتعالا !

وعلى مقربة من المكان الذى التقيا فيه بايمليو منذ ساعتين ، خرج اليهما الصبى مرة أخرى من وراء الاشجار . وكان يلوح لهما بقبعته هاتفا فى بهجة وفرح ، وظل يثب حتى وصل الى العربة ، فلم ينتظر حتى تتوقف الجياد ، بل قفز الى داخل العربة من الباب ، معرضـا نفسـه للسقوط بين العجلات ، فلما صار فى الداخل ، دنا من سانين ، وقال له ، فى نفس واحد :

ـ انت حى ؟ .. ألم تجرح ؟ .. سامحنى .. لم أطعك ! .. لم أذهب الى فرنـكفورت .. اننى لم أقـو على ذلك . انتظرتك هنا .. احك لى .. ما الذى حـدث ؟ هل قتلته ؟

ولم يسـتطع سانين أن يهـدىء من روع الصـبى ، وأن يجلسه الى جانبه الا فى كثير من العناء . وأخذ بانتـاليون يشرح للصـبى تفاصـيل ما وقع ، فى حماس بالغ ، وفرح ظاهر ، ولم ينس أن يشبه سانين بتمثال القائد .. ثم نهض ، وباعد ما بين قدميه حتى لا يختل توازنه ، وشبك ذراعيه ، ملقيا نظرة متعـالية من فوق كتفه ، ومثل وقفة « القائد » سانين . فكان ايمليو يصغى الى حديثه فى اهتمام المتعبد ، وكان فى بعض الاحيان يقاطعه بصيحة اعجاب ، أو ينهض عن مكانه بقفزة سريعة ليقبل صديقه البطل !

وجرت العربة فى شوارع فرنكفورت حتى توقفت أخيرا عند باب الفندق الذى يسكنه سانين . وفيما كان سانين

يجتاز الطابق الثانى ومعه صديقاه ، رأى فى عتمة الدهليز شبح امرأة محجبة الوجه ، تسرع الخطى . فلما أصبحت أمامه ، تباطأت، وترددت، ثم زفرت ، وهرعت الى الشارع، فاختفت فيه ، على دهشة من الخادم ، الذى قال لسانين :

ـ ان هذه السيدة تنتظركم منذ أكثر من ساعة !

وعرف سانين انها جيما ، فقد لمح عينيها من وراء نقابها الحريرى الملون الذى أسدلته على وجهها. فقال مستاء ، وهو يوجه سؤاله الى ايمليو والى بانتاليون الذى كان ما يزال يقف وقفة المنتصر :

ـ هل الآنسة جيما على علم بشىء ؟

فاحمر وجه الصبى ، وقال مضطربا :

ـ لقد اضطررت أن أقص على شقيقتى كل شىء ، اذ كانت قد حدست الأمر .. وأى ضير فى هذا الآن ، مادام كل شىء قد انتهى على خير ما يرجى ، وما دامت قد رأتك سليما لم يمسك سوء ؟ !

فأشاح سانين بوجهه ، ثم قال بلهجة ملؤها الأسف :

ـ ان هذا لا ينفى أن كليكما ثرثار لا يؤتمن على سر !

ثم دلف الى غرفته ، وجلس على أحد المقاعد . وقال له ايمليو متوسلا :

ـ لا تغضب .. أرجوك .. أتوسل اليك !

ـ حسنا .

والحق أن سانين لم يكن غاضبا ، ولم يسئه ـ فى قرارة نفسه ـ أن علمت جيما بما جرى . ولكنه قال لصديقه :

ـ كفى الآن .. اتركاني وحدي ، فانى فى حاجة الى النوم
وصاح بانتاليون :

ـ فكرة عظيمة ! .. انك لتستحق الراحة حقا ، أيها السيد النبيل . هيا بنا يا ايمليو على أطراف أصابعنا !

وحين قال سانين انه يريد أن ينام ، كان يتعلل بهذه الحجة ليتخلص من رفيقيه ، ولكنه ما أن صار وحيدا ، حتى شعر بتعب شديد بالفعل ـ اذ انه لم يغمض له جفن طوال الليلة البارحة ـ فارتمى على فراشه ، وسرعان ما راح فى سبات عميق !

- ٢٣ -

نام سانين عدة ساعات متواصلة . ورأى فيما يرى النائم انه يقتتل مرة أخرى فى مبارزة ، ولكنه كان ينازل ، فى هذه المرة ، السيد كلوبر نفسه . وقد رأى على شجرة ، تظل رأس خصمه ، ببغاء لها رأس بانتاليون ، وقد اخذت تردد بصوت حاد : توك .. توك .. واذا بسانين يسمع مرة أخرى تلك الضربات المتميزة . فلما فتح عينيه ، ورفع رأسه ، ادرك أن هناك من كان يطرق الباب . فصاح : « ادخل ! » . فدخل الخادم ، وأنبأه أن بالباب سيدة تحرص على أن تراه حتما . وقال سانين بينه وبين نفسه : « انها جيما » . لكن السيدة لم تكن جيما ، بل أمها .. وتهاوت السيدة ليونور على مقعد ، وأخذت تجهش بالبكاء . فسألها سانين :

ـ ماذا بك يا سيدتى العزيزة الطيبة ؟

ثم جلس بجوارها ، وهو يشد على يديها فى تودد . وعاد يسألها :

ـ ما الذى حدث ؟ هدئى من روعك ، أرجوك ..

ـ يا سيد ديمترى ، أنا .. أنا تعيسة .. تعيسة جدا !

ـ أنت تعيسة ؟ !

ـ كل التعاسة ! .. هل كان فى وسعى أن أتوقع ذلك ؟ .. لقد وقع فجأة ، مثل برق خاطف فى سماء صافية !

وكانت السيدة ليونور تتنفس بصعوبة . فهتف الشاب منزعجا :

ـ ولكن ما الذى حدث ؟ قولى .. هل تريدين كوبا من الماء ؟

ـ شكرا لك .

وما لبثت أن مرت بمنديلها على عينيها ، وقد عاودها البكاء ، وقالت :

ـ اننى أعرف كل شىء .. كل شىء !

ـ كل شىء ؟ .. ماذا تعنين ؟

ـ كل ما وقع اليوم . وأعرف السبب أيضا .. لقد تصرفت أنت تصرفا فيه نبل ، وشهامة ، ومروءة .. ولكن يا لها من ظروف سيئة ! .. ليتهم اتبعوا نصيحتى .. لقد عارضت فى أمر تلك الرحلة الى سودن !

والواقع أن السيدة ليونور لم تعارض فى أمر تلك النزهة مطلقا ، ولكنها توهمت ـ فى تلك اللحظه ـ بانها اوجست عندئذ شرا .. واستطردت تقول :

ـ انني أجيء اليك الآن ، لأنني أعتقد أنك رجل تفيض نفسك نبلا ، وانك صديق ، رغم أنني لم أتعرف بك الا منذ خمسة أيام .. ولكنني أرملة وحيدة .. ان ابنتي ..

وخنقت العبرات صوتها . ولم يعرف سانين ما عسى أن يكون معنى هذه المقدمة الطويلة ، فسألها :

ـ ابنتك ؟

ـ ابنتي جيما .. **(قالت السيدة روزيلي ذلك متأوهة ، دون أن تبعد عن فمها منديلها المبلل بالدموع)** . ابنتي جيما صرحت لي اليوم بأنها أصبحت لا ترغب في السيد كلوبر خطيبا لها . وقد كلفتني أنا بأن أنقل الى السيد كلوبر قرارها هذا ، في هذا اليوم نفسه !

ولم يستطع سانين ، حين سمع هذا الكلام ، أن يكبح ارتعاشة خفيفة سرت في جسمه ، اذ انه لم يكن يتوقع هذا النبأ قط . وأردفت السيدة ليونور تقول :

ـ ان هذا عار للاسرة .. لم يسمع أحد بمثل هذا أبدا : فتاة مخطوبة تفسخ الخطبة !.. ثم ان هذا العمل ، يا سيد ديمتري ، ليس بالنسبة الينا عارا فحسب ، بل هو أيضا دمار !

وراحت تفرك منديلها حتى صار كالكرة ، كأنما لتخفي فيه كل ألمها .. وأردفت تقول :

ـ أصبحنا لا نستطيع أن نعيش مما يدره علينا الحانوت .. والسيد كلوبر رجل ثري فعلا ، وله في عمله آمال كبار ولكن ، لماذا أصبحت لا تريده ؟ ألأنه لم يدافع عنها ؟..

انني أسلم لك بأن ذلك لم يكن جميلا منه . ولكن السيد كلوبر رجل مدنى ، وصفته التجارية قد تسمح له بأن يستهين بعمل صبيانى بسيط يصدر عن ضابط صغير لا يعرفه .. أين الاساءة فى هذا يا سيد ديمترى ؟

ـ عفوا يا سيدة ليونور ، ولكننى أحس أنك تأخذين على مسلكى الذى ..

ـ أنا ؟ لا .. هذا شىء آخر .. أنت رجل عسكرى ، كسائر الروس !

ـ عفوا ..

ـ ثم انك غريب ، وسائح .. وأنا شاكرة لك كل الشكر !

قالت السيدة روزيلى ذلك ، دون أن تصغى الى سانين . وكانت تفيض ألما وتأتى بحركات مضطربة ، وقد راحت تنشر منديلها لتجفف به أنفها . وكان من السهل على المرء أن يلاحظ ـ من مجرد تعبيرها عن حزنها ـ انها لم تولد تحت سماء شمالية ! .. وما لبثت ان قالت :

ـ وكيف تريد للسيد كلوبر أن ينجح فى تجارته ، اذا كان يبارز زبائنه ؟ ليس من الحكمة أن نطالبه بشىء كهذا .. وها أنذا الآن مطلوب منى أن أطرده .. ولكن من أين سنعيش ؟ .. لقد كنا فى الماضى نحتكر صناعة بعض أنواع الحلوى .. أما الآن ، فجميع بائعى الحلوى يصنعون ما نصنع .. فكر فى كل ما سيقوله الناس فى المدينة عن هذه المبارزة .. فهل تخفى فضيحة كهذه ؟ وفضلا عن هذا ، هناك خطبة تفسخ .. هذه فضيحة كبرى ، فضيحة كبرى ! ..

ان جيما فتاة جميلة ، وهى تحبنى كثيرا ، ولكنها جمهورية النزعة وعنيدة ، ولا يصعب عليها أن تخرج على آراء الناس، وأنت الشخص الوحيد الذى يمكن أن يكون له تأثير عليها !

وازدادت دهشة سانين حين سمع هذا الكلام فقال :

ـ أنا ، يا سيدة ليونور ؟

ـ نعم ، ليس هناك غيرك .. أنت وحدك الذى يستطيع أن يردها الى صوابها .. انت رجل ذكى شهم ، وقد دافعت عنها ، فستصدق كل ما تقوله لها .. ويجب عليها أن تطيعك .. لقد عرضت حياتك للخطر فى سبيلها ، وستقنعها بخطأ رأيها . وقد سبق أن أنقذت حياة ابنى ، فأنقذ الآن ابنتى .. لقد أرسلك الله الينا .. أتوسل اليك راكعة !

وهمت بأن تنهض عن مقعدها ، كأنما لتركع على الارض. فأمسك بها سانين . واجلسها قائلا :

ـ سيدة ليونور ، ماذا تصنعين ؟

فتشبثت السيدة ليونور بيدى الشاب تشبثا عصبيا ، وهى تقول :

ـ **هل تعدنى ؟**

ـ ولكن يا سيدة ليونور .. مهلك لحظة .. كيف تريدين أن ..

ـ لا ، لا .. عدنى، اذا كنت لاتريدنى أنأموت عند قدميك!

ولم يعرف سانين ماذا يفعل ، فتلك كانت أول مرة يقف فيها امام الدم الايطالى وهو يغلى ويفور . فقال :

ـ سافعل كل ما تريدين . ساكلم الانسة جيما .

وما ان سمعت السيدة ليونور هذا الوعد ، حتى اطلقت صيحة فرح . فأضاف سانين يقول :

ـ ولكننى لا أضمن النتيجة ، طبعا !

فقالت السيدة ليونور ضارعة :

ـ لا تضن على بمساعدتك .. لا تضن على بمساعدتك ! .. لقد وعدتنى ، وستنجح .. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا .. انها لم تعد تصغى الى كلامى ، ولا تطيعنى .

فسألها سانين بعد لحظة صمت :

ـ هل صرحت لك تصريحا جازما قاطعا بأنها لا تريد أن تتزوج من السيد كلوبر ؟

ـ قطعت فى الامر بسكين .. انها صورة من أبيها جيوفانى باتيستا .. انها رهيبة !

ـ رهيبة ؟ .. الآنسة جيما رهيبة ؟ !

ـ نعم .. انها شيطان .. ولكنها فى الوقت نفسه ملاك ! .. لسوف تطيعك .. ستأتى الينا حالا ، أليس كذلك ؟ تعال حالا ، يا صديقى العزيز ، تعال حالا ، يا صديقى الروسى الكريم !

ونهضت السيدة ليونور فى عنف ، وتناولت رأس الشاب وهى تقول :

ـ هاأنذا أباركك كأمك .. اعطنى الآن قليلا من الماء !

وقدم سانين للسيدة روزيلى كأسا من الماء ، ووعدها باللحاق بها دون ابطاء ، ثم شيعها حتى الشارع ، وعاد الى غرفته ، وقد استبدت به الدهشة . وراح يقول لنفسه :

« هاهي ذي الحياة قد بدأت تعصف كزوبعة ! ». ولم يحاول أن يحلل مشاعره ، ولا أن يغوص الى ما يعتمل فى نفسه . ودمدمت شفتاه على غير ارادة منه : « ياله من يوم ! .. شيطانة .. وعلى أنا أن أقدم لها النصح ، وأى نصح ؟! » . ودار رأسه .. ووسط هذا الخضم من الاحاسيس المتضاربة والافكار الممضة التى طفقت تحاصره ، كانت صورة جيما تبرز بغير انقطاع ، منقوشة فى ذاكرته الى الابد ، كما رآها فى تلك الليلة العاصفة ، وسط اطار النافذة المعتمة ، تحت أشعة النجوم المتلألئة !

- ٢٤ -

اقترب سانين من بيت السيدة روزيلى بخطى مترددة . وكان فى قلبه وجيب شديد ، حتى أنه كان يحس بضرباته ويسمعها بين ضلوعه ! ..

ترى ماذا يقول لجيما ؟ وكيف يفاتحها فى الامر ؟ .. وأخذ يجول فى البيت بدلا من أن يدلف الى الحانوت ، فالتقى فى حجرة المدخل بالسيدة ليونور ، التى سرت بمجيئه سرورا بالغا ، وان شابه شيء من التوجس فى الوقت نفسه .

وقالت له بصوت خافت ، وهى تشد على يديه بحرارة :

ـ لقد انتظرت مجيئك . اذهب الى الحديقة .. انها هناك . ولا تنسى أننى أعقد عليك رجائى كله !

ومضى سانين الى الحديقة . وكانت جيما تجلس على مقعد فى ممر بين الاشجار ، وهى تتناول من سلة كبيرة

أمامها أنضج ثمار الكرز ، ثم تضعها فى احد الاطباق . وكانت الشمس تميل الى الغروب ، والساعة قد تجاوزت السادسة ، والاشعة الكبيرة المائلة التى ترسلها الشمس وتغرق بها الحديقة أقرب الى اللون الارجوانى منها الى الذهبى . وكانت أوراق الاشجار تتهامس فى بعض الاحيان بصوت خافت غير متعجل ، وبعض النحل ما يزال يدندن متواثبا من زهرة الى أخرى . وعن بعد، يمامة تسجع سجعا رتيبا لا يكل . وكانت جيما تضع على رأسها تلك القبعة نفسها التى ارتدتها يوم ذهابها الى (سودن) .. ونظرت الى سانين من تحت الحافة المطوية لقبعتها ، ثم مالت على السلة التى أمامها من جديد . وتمهل سانين فى سيره حتى اقترب من جيما ، فلما أصبح أمامها سألها قائلا :

– لماذا ترفعين هذه الثمار ؟

ولم تجبه الفتاة على الفور ، ولكنها قالت أخيرا :

– هذه الثمار أنضج من الاخرى ، فنحن نصنع منها مربى ، وندع الاخرى للفطائر .

وزادت جيما فى خفض رأسها ، بينما ظلت يدها اليمنى ، التى تحمل كرزتين ، معلقة فى الهواء بين السلة والطبق . فقال لها سانين :

– هل تسمحين لى بالجلوس الى جانبك ؟

– بكل سرور .

ثم أفسحت له مكانا ، فجلس بجوارها .. وسأل الشاب

نفسه : « كيف أبدا ؟ » ، لـكن الفتاة ما لبثت أن خلصته من الحرج ، اذ سألته :

ـ هل كنت تتبارز اليوم ؟

ورفعت نحوه وجهها وقد تخضب بحمرة شديدة من فرط الاضطراب والخجل ، لكن عينيها كانتا تفيضان بمعانى الشكر .. وأردفت :

ـ وتبدو مع ذلك على هذا القدر الكبير من الهدوء ؟! .. أليس للخطر من وجود عندك اذن ؟

ـ ولكننى لم أتعرض لأى خطر .. لقد جرت الامور كلها على أيسر وجه !

فرفعت جيما أصبعها ، وأخذت تحركها أمام عينيها ذات اليمين وذات اليسار ـ كما يفعل الايطاليون ـ وهى تقول :

ـ لا ، لا ، لا تقل هذا ، لن تخدعنى ! .. لقد قص على بانتاليون كل شىء !

ـ وهل تصدقين ما قصه بانتاليون ؟ ألم يشبهنى بتمثال القـائد ؟

ـ ربما كان تعبيره عن عواطفه مضحكا ، ولكن عواطفه نفسها ليست مضحكة ! .. أكل ذلك من أجلى أنا ؟ من أجلى أنا ؟ .. اننى لن انسى هذا ما حييت !

ـ أؤكد لك يا آنسة جيمـا ..

ـ لا ، لن أنساه ما حييت !

وكانت تتكلم وهى تضغط على كل مقطع من كلامهـا .. وحدقت فى وجه الشـاب مرة أخرى ، ثم أشاحت عنه

برأسها . ولم يعد يرى فى تلك اللحظة الا جانب وجهها فخيل اليه ان عينيه لم تقعا فى حياته على مثل هذا الوجه الذى يفيض سحرا وجمالا ، لا ولا أحس بما يحس به الآن من مشاعر . وسأل نفسه : « والوعد ؟ » . ثم قال لها بعد لحظة تردد :

ـ يا آنسة جيما !

ـ نعم ؟

ولم تتحول ببصرها اليه ، بل استمرت تخرج ثمار الكرز من السلة . وكانت تمسك الثمرة من ذيلها فى رفق بأطراف أصابعها ، مباعدة ما بين الاورق . الا ما أروع الشقة الجميلة التى انطوت عليها هذه الكلمة « نعم » ! . . وسألها :

ـ ألم تحدثك أمك بشىء عن . . ؟

ـ عن ماذا ؟

ـ عنى !

وما ان سمعت جيما هذا الكلام حتى ألقت بثمار الكرز فى السلة ، وسألته :

ـ هل كلمتك أمى ؟

ـ نعم .

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ قالت لى انك . . انك قررت فجأة أن تغيرى . . ماعقدت عليه نيتك من قبل .

وطأطأت جيما رأسها مرة أخرى ، حتى اختفى وجهها كله تحت قبعتها ، فأصبح الشاب لا يرى سوى عنقها اللين الرخص الذى بدا وكأنه ساق وردة ! . . وسألته :

ـ اية نية تقصد ؟
ـ نيتك .. فيما يتعلق .. بمستقبلك !
ـ تريد أن تقول ، بشأن السيد كلوبر ؟
ـ أجل .
ـ وهل قالت لك أمى اننى لا أريد أن أتزوجه ؟
ـ نعم .

وتحركت جيمـا ، فاهتز المقعـد ، وانقلبت السلة على الارض ، وسقطت بعض الثمار . ثم مرت دقيقتان أو ثلاث قبل أن تسأله مرة أخرى :

ـ لماذا حدثتك أمى فى هذا

ولم يعد سانين يرى الا ياقتها ، وحركة صـدرها وقـد ازدادت شدة . وأجابها :

ـ لماذا حدثتنى أمك فى هذا ؟ .. لانها تعتقد ، ما دمنـا صديقين ، وما دمت ستشرفيننى بثقتك ، اننى أستطيع أن أسدى اليك بنصيحة ، وأنك ستطيعيننى !

وسقطت ذراعا جيما على ركبتيها ، وأخذت تجعد ثنيات ثوبها ، ثم قالت بعد لحظة انتظار :

ـ وبماذا تنصحنى ؟

ولاحظ سانين أن أصابع جيما كانت ترتعش فوق ركبتيها ، وانها تعبث بثوبها اخفاء لاضطرابها . فوضـع يده فى رفق على أصابعها المضطربة المرتعشة . وقال :

ـ لماذا لا تنظرين الى يا جيما ؟

وما لبثت أن دفعت بقبعتها خلف رأسـها ، ورفعت نحو

سانين عينين واثقتين تفيضان بالشكر ، مثلما قبل لحظات .
وانتظرت أن يتكلم الشاب ، ولكن سانين اضطرب بدوره أمام هذا الوجه الصادق . وانبهر بجماله ..

وكان شعاع دافيء من شمس المساء يشرق على وجه الفتاة الايطالية ، وكان تعبير هذا الوجه أكثر اشراقا وتوهجا من الضياء نفسه . وقالت وهى تبتسم ابتسامة واهنة ، وترفع حاجبيها قليلا :

ـ سأتبع نصيحتك يا سيد ديمترى ، فبماذا تنصحنى ؟

ـ بماذا أنصحك ؟ .. ان أمك ترى أن رفضك الزواج من السيد كلوبر ، لالشىء الا لأنه لم يبرهن على شجاعته فى ذلك اليوم ..

ـ لا لشىء الا لهذا السبب ؟ !

ثم مالت الى أمام ، فتناولت السلة ، ووضعتها على المقعد الى جانبها . واستأنف يكمل عبارته :

ـ .. ليس بالتصرف الحكيم .. وهذا قرار يجب أن تحسب نتائجه كلها . ويظهر أن حالة أعمالكم تفرض على كل فرد من أفراد الاسرة واجبات ..

ـ أنت تردد الآن رأى أمى .. وأنا أعرفه .. ولكن ما هو رأيك أنت ؟

ـ رأيى أنا ؟

ولم يستطع سانين أن يتم كلامه ، فقد شعر بغصة فى حلقه . حتى كاد يختنق ، ثم قال فى جهد :

ـ أعتقد أيضا ..

ـ أنت ايضا ؟ .. أنت تعتقد ايضا ؟ !

ـ أعنى .. أقصد ..

ولم يستطع سانين ، رغم جهوده ، أن ينطق بكلمة اخرى ! فقالت جيما :

ـ حسنا .. ما دمت ، وأنت صديق ، تنصحنى بالتراجع عما عزمت عليه ، فسافكر فى الأمر !

ولم تعد جيما تعرف ماذا تفعل ، فأخذت ترجع الى السلة ما كانت قد فرزته من ثمار الكرز فى الطبق . وما لبثت أن قالت له :

ـ أمى تعتقد أننى سأطيعك .. والحق أننى قد اتبع نصيحتك .

ـ ولكن .. اسمحى يا آنسة جيما .. اننى أتمنى لو عرفت الأسباب التى دفعتك الى ..

ـ سأتبع نصيحتك !

ثم تقطب جبينها ، وامتقعت وجنتاها . وقالت وهى تعض على شفتها السفلى :

ـ لقد أسديت الى من الجميل ما يفرض على واجب اطاعتك .. سأقول لأمى اننى سأفكر فى الامر من جديد .. وها هى ذى آتية !

وكانت السيدة ليونور قد ظهرت عند عتبة الباب المفضى الى الحديقة . وقد نفد صبرها ، اذ لم تكن تطيق المكوث فى مكان . وكانت تقدر أن سانين لا بد وقد فرغ من مساعيه

لدى جيما منذ مدة طويلة ، رغم ان الحديث بينهما لم يدم في الواقع أكثر من ربع ساعة .. وصاح سانين مذعورا :

ـ لا ، لا ، أرجوك .. لا تقولى لأمك شيئا بعد .. انتظرى .. سأحدثك فى الأمر .. سأكتب اليك .. وحتى ذلك الحين ، لا تتخذى أى قرار .. انتظرى رسالتى !

ثم صافحها ، وانتفض واقفا . وكم كانت دهشة السيدة ليونور ، حين مر أمامها ، فرفع قبعته مغمغما ببضع كلمات غير مفهومة . ثم مضى واختفى !

واقتربت السيدة روزيلى من ابنتها ، وقالت لها :

ـ حدثينى يا جيما ، أرجوك ..

فلم تزد الفتاة على أن نهضت ، وقبلت أمها . ثم قالت :

ـ هل لك يا أمى الحبيبة أن تمهلينى فى الجواب قليلا .. لن يطول انتظارك .. انتظرينى الى الغد .. أرجوك ! .. والى أن يأتى الغد ، أرجو الا نتكلم فى هذا الموضوع ...آه..

ثم أخذت تبكى فجأة من شدة الفرح . وازدادت حيرة السيدة ليونور .. لقد كانت جيما تبكى ، لكن وجهها لم يكن يعبر عن شىء من الحزن ، بل كان الى الفرح أدنى . فسألت ابنتها :

ـ ما بك يا جيما ؟ .. أنت لا تبكين أبدا ، فماذا دهاك اليوم ؟

ـ لا شىء يا أماه ، لا شىء .. عليك بقليل من الصبر .. يجب علينا أن ننتظر . ولا تسألينى عن شىء قبل أن يأتى الغد . ولنسرع الآن فى رفع ثمار الكرز قبل أن تغيب الشمس !

ـ وهل أنت ثائبة الى رشدك ؟

ـ آه .. انني عاقلة جدا !

وهزت جيما رأسها . ثم أخذت تجمع ثمار الكرز باقات صغيرة، وتحملها بحيث تخفى بها وجهها الذى علاه الاحمرار. ولم تمسح دموعها التى جفت !

ـ ٢٥ ـ

عاد سانين الى منزله راكضا . وكان يحس أنه لن يستطيع أن يفكر تفكيرا واضحا الا اذا خلا الى نفسه . فما أن جلس الى المنضدة فى غرفته ، حتى أغرق وجهه فى يديه ، وصاح قائلا: « أحبها ، أحبها حبا جنونيا ! » ، وتأججت نفسه كلها كجذوة أخرجت من تحت الرماد . . **وماهى الا لحظة حتى أصبح لا يستطيع أن يدرك كيف جلس الى جانبها ، وتحدث اليها ، ثم لم يقبل طرف ثوبها ، ولم يقل لها ـ كما يقول الشبان ـ « انه مستعد لأن يموت تحت قدميها ! »** .. لقد تحدد مصيره بعد لقائه الأخير بها فى الحديقة . وأصبح الآن ، حين يفكر فيها ، لا يتصورها شعثاء الشعر تحت ضياء النجوم ، وانما جالسة على المقعد فى الحديقة ، تدفع بقبعتها الى وراء ، وترنو اليه بتلك النظرة التى تفيض ثقة ، وهى ترتعد ، وتسرى فى عروقها الرغبة فى الحب .

وتذكر الوردة التى يحملها فى جيبه منذ ثلاثة أيام ، فتناولها بيديه ، وحملها الى شفتيه ، فى حرارة سرعان ما استحالت الى احساس بالعذاب . فاذا به لا يستطيع أن يناقش ، أو أن يفكر ، أو أن يتطلع الى المستقبل ، وخيل اليه أنه قد انفصل عن ماضيه كلية ، وانه وثب وثبة كبرى الى



« .. أكل ذلك من أجلى أنا ؟ .. من أجلى أنا ؟ ..
اننى لن أنسى هذا ما حييت ! » (صفحة ٢١١)

أمام .. وصار يشعر أنه قد هجر شاطىء حياته الوحيدة الموحشة ، وانه غاص فى نهر رقاق بهيج جارف ، يملأ قلبه بالسعادة والنشوة ، حتى أنه أصبح لايريد أن يعرف الى أين يقوده هذا النهر ، ولا أن يتساءل عما اذا كان التيار سيحطمه على احدى الصخور الصلبة !.. لقد اختفت الامواج الهادئة فى قصة «أوهلاند» ، التى كانت تداعب خياله منذ غير بعيد ، وحلت محلها أمواج عارمة متلاطمة ، راحت تتراقص وتتواثب ، وتحمله فى حركتها الصاخبة !

وتناول سانين ورقة، فكتب الرسالة التالية دفعة واحدة، دون أن يشطب منها حرفا :

« عزيزتى جيما .

« أنت تعرفين النصيحة التى كلفت بأن أسوقها اليك .. تعرفين ما تتمناه أمك ، وما كانت تنتظره منى . ولكن الأمر الذى لا تعرفينه ، والذى أريد الآن أن أكاشفك به ، هو أننى أحبك ، وأننى أكن لك تلك العاطفة الجامحة التى تستعر فى قلب يشعر بالحب لأول مرة !

« لقد اضطرمت النار فى نفسى فجأة ، وبلغت من عنفوان أوارها اننى لا أجد الآن شيئا أقوله .. وحين جاءتنى أمك ، كانت النار ما تزال خامدة فى قلبى ، والا لكان واجب الشرف يقتضى أن أرفض المهمة التى اسندتها الى .. والاعتراف الذى أبوح لك به الآن انما هو اعتراف رجل شريف ، اذ من الواجب أن تعرفى الشخص الذى يخاطبك .. وها أنت ذى

ترين أننى لا أستطيع أن أقدم لك نصيحة .. اننى أحبك ، أحبك ، أحبك ، وهذا الحب يملأ على عقلى وقلبى .. » .

ديمترى سانين

وطوى سانين الرسالة ، وهم بأن يقرع الجرس للخادم ، لولا أنه غير رأيه ، وراح يقول لنفسه : « لا ، ليس هذا صواباً .. ليتنى أستطيع أن أبعث بالرسالة مع ايميلو ! » .. لكنه ما لبث أن أدرك أنه لا يستطيع أن يذهب الى أيميليو فى متجر السيد كلوبر ، وأن يلقاه هناك بين المستخدمين الآخرين . فضلا عن أن الوقت كان ليلا ، وأنه ربما يكون الصبى قد عاد الى بيته !

وفيما كان سانين يقلب هذه الأفكار فى رأسه ، تناول قبعته ، وخرج من الفندق ، فما أن اجتاز احد الشوارع حتى لمح ايمليو ، فسر لذلك سرورا عظيما .. وكان الصبى المتحمس يحمل تحت ابطه حقيبة ، ويمسك بيده لفافة ورق ، ويستحث الخطى عائدا الى البيت . فقال سانين لنفسه : « حقا ان لجميع العشاق نجما ! » .. ونادى الصبى ، فالتفت ايمليو الى الوراء ، وهرع الى سانين . فدفع هذا اليه بالرسالة ، وطلب منه أن يحملها الى جيما . وكان الفتى يصغى الى صديقه باهتمام شديد ، فلما فرغ من كلامه ، سأله بلهجة جادة لها دلالتها :

ـ هل يجب الا يعلم أحد بالأمر ؟

فقال سانين ، قد أحس بشىء من الخجل :

ـ نعم يا عزيزى الصغير ، يجب ألا يعلم أحد بالأمر !
ثم ربت على خده ، وأضاف :

ـ واذا سلمتك ردا ، فائتنى به .. أليس كذلك ؟ وسأبقى بالمنزل !

وقال ايميليو فرحا :

ـ إعتمد على !

وأسرع يبتعد .. وفيما هو ماض فى طريقه ، التفت مرة أخرى الى الوراء ، وأومأ برأسه الى سانين !

***

وعاد سانين الى غرفته ، والقى بنفسه على أحد المقاعد دون أن يشعل الشمعة ، وراح يشبك يديه وراء رأسه ، وقد استسلم لمشاعر الحب الأول التى ليست بحاجة الى وصف ، اذ ان من كابدها يعرف ما فيها من عذاب ولذة ، ومن لم يذقها فلا سبيل له الى تصورها ! .. وان هى الا فترة وجيزة ، حتى فتح الباب ، وأطل من ورائه رأس ايميليو . واذا بالصبى يبتدر سانين قائلا بصوت خافت :

ـ لقد جئتك بالرد ، وها هو ذا !

ولوح بورقة فوق رأسه ، فوثب سانين من مقعده ، واختطف الرسالة من ايميليو .. كان الهوى يملأ قلب الشاب ، ويستبد به ، حتى لقد أصبح عاجزا عن التفكير فى تصرفاته ، وعن اخفاء سر حبه ، فلو أنه كان فى وعيه ، اذن لاستطاع أن يكبح جماح نفسه أمام أخى جيما الصغير ..

واقترب من النافذة ، وأخذ يقرأ السطور التالية على ضوء مصباح الشارع :

((أرجوك ، أضرع اليك الا تأتى الينا غدا ، والا تظهر فى بيتنا طوال النهار .. وهذا ضرورى ، ضرورى للغاية ، وبعدها نقرر كل شىء .. وأنا أعرف انك لن تعصنى ، لأنك ..))

جيما

وقرأ سانين الرسالة مرتين ، وكم بدا له خط جيما جميلا لطيفا ! .. وبعد بضع لحظات من التفكير ، نادى ايمليو بصوت مرتفع . وكان الصبى يدير وجهه الى الجدار ، اظهارا لعدم الفضول ، وقد جعل يحفر الجدار بأظفاره . فلما سمع صوت سانين يناديه ، هرع اليه قائلاً :

ـ لبيك !

ـ اصغ الى .. اذهب الى هناك ، هل تفهمنى ؟ اذهب الى هناك ، وأخبرها اننى سأفعل كل ما تطلبه منى .. وأنت ، ماذا أنت فاعل غدا ؟

ـ أنا ؟ لا شىء .. اذا .. سأفعل كل ما تريد !

ـ حسنا .. اذا استطعت ، فوافنى فى ساعة مبكرة من الصباح . وسنذهب معا فى نزهة الى الحقول حتى المساء . هل يناسبك هذا ؟

وأخذ الصبى يقفز من شدة الفرح ، عند سماعه هذا الاقتراح . وقال :

ـ نذهب معا نحن الاثنين ؟ .. أتنزه معك ؟ .. سآتى حتما !

ـ واذا لم يسمحوا لك بأن تأتى ؟

ـ بل سيسمحون !

ـ اسمع .. لا تقل هنالك اننى دعوتك لقضاء النهار كله.

ـ أأنا غبى الى هذا الحد ؟ !

وقبل سانين فى حرارة ، ثم مضى مسرعا .. وما أن انصرف ، حتى طفق سانين يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولم يستطع أن يأوى الى فراشه الا فى ساعة متأخرة من الليل. فقد استحوذت عليه تلك المشاعر العذبة الممضة فى آن واحد، واقتحمت نفسه تلك النشوة المسكرة التى تهاجم المرء غداة حياة جديدة . وكان يشعر بارتياح بالغ لفكرة قضائه النهار مع ايمليو ، فقد كان الصبى يشبه أخته نوعا ما ، حتى لقد قال سانين لنفسه : « ان وجوده معى سيذكرنى بها ! » .. على أن الشىء الذى بهر سانين انما هو ذلك التبدل المباغت الذى طرأ على نفسه ، فقد أحس بأنه كان يحمل لجيما دائما نفس هذا الحب الذى يشعر به نحوها اليوم !

- ٢٦ -

وصل ايمليو الى سانين فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، وهو يجر وراءه الكلب « تارتاجليا » . وكان بادى الاناقة وجمال الهندام حتى ليحسب من يراه انه من أبوين المانيين . وكان قد أخبر أهله بأنه سيتنزه مع سانين حتى الفداء ، على أن يذهب الى المتجر بعد ذلك !

وفيما كان سانين يرتدى ملابسه ، أخذ ايمليو يحدثه — وان يكن فى شىء من التردد — عن جيما وعن خلافها مع كلوبر ، ولكن سانين لم يظهر اهتماما بحديثه ، بل بدا عليه التبرم بما يقوله ، فلم يلبث ايمليو أن أمسك عن الكلام ، مظهرا بذلك أنه ادرك تسرعه فى الافضاء بما يحسن فيه التأنى ، ولم يشر بعد ذلك اشارة واحدة الى الموضوع ، بل راح يصطنع التحفظ والوقار بين الحين والآخر .. وما أن تناول الصديقان قهوة الصباح ، حتى مضيا فى طريقهما الى (هاوزن) سيرا على الاقدام ، وكانت (هاوزن) قرية صغيرة تقع على مقربة من (فرنكفورت) ، وتحف بها الغابات ، ومنها ترى سلسلة جبال (تاوفوس) كلها . وكان الجو جميلا ، والشمس تسطع وتتوهج ، ولكن دون أن تكون اشعتها لافحة . وكانت أنسام رطبة تهمهم بين أوراق الاشجار الخضراء . وعلى الارض ، كانت تتخاطر ظلال سحب مستديرة كبيره ، فى سرعة لا يقف فى سبيلها حاجز !

وما أن صار الشابان خارج المدينة ، حتى أخذا يسرعان الخطى فى الطريق الممهدة فرحين . فقطعا الغابات يسيران على غير هدى ، وما لبثا أن تناولا غداء وافرا فى القرية ، ثم راحا يتسلقان الجبل مسرورين ، مأخوذين بجمال المناظر ، وقد اندفعا يقذفان بأحجار كانت تتواثب فى هبوطها وتتدحرج كأنها الأرانب ، وظلا يلعبان على هذا النحو الى أن مر تحتهما أحد المتنزهين ، فأخذ يشتمهما بصوت عنيف مدوى .. واستلقيا بعد ذلك على الطحلب القصير الجاف ، الاصفر

الضاوب الى الخضرة ، وشربا من البيرة ثم مضيا يتسابقان ويتراهنـان فى العـدو والقفز . وسرعان ما فطنا الى رجع الصدى ،فأخذا يتناجيان معه ، ثم طفقا يغنيـان ، ويلعبان لعبة الأختباء ، وينادى كل منهما صاحبه فى صراخ . وكافحا معا ، فقطعا بعض أغصان الاشجار ، وزينا قبعتيهما بأوراق نبات الخنشار ، حتى لقد انطلقا يرقصان . وكان تارتاجليا يشاركهما بهجتهما فى حدود وسائله وقدراته . كان لا يقذف بحجارة ، ولـكنه كان يركض ويقفز فى اثرهما ، وكان ، اذا غنيـا ، نبح معهمـا ، حتى لقـد شرب البيرة حين شرباها ، اظهارا لحسن المرافقة ، ولكنه لم يكتم عنهما اشمئزازه من مذاقها . فلقد تعلم هذا الفن من طالب ألمانى كان فى سالف الزمان صاحبه . الا انه لم يكن يطيع ايمليو كثيرا ، بل أنه قلما كان يطيع صاحبه بانتاليون نفسه ، فكان اذا سـأله ايمليو أن « يتكلم » أو أن « يقرأ » ، لا يزيد على أن يحرك ذيله ، وأن يمد لسانه وهو يطوى طرفه !

***

وقد أتيح للشـابين أثناء نزهتهما أن يطرقا موضـوعات فلسفية شتى . فقد عمد سانين ــ بوصفه أكبر من صاحبه سنا ، وباعتباره رجلا رشيدا عاقلا ــ الى ادارة دفةالحديث، فى بداية النزهة ، حول الكلام عن القدر ومصير الانسان ، ولكن المناقشة لم تستمر على ذلك المستوى العالى مـدة طويلة . فقد وجد ايمليو أن سؤاله صديقه عن روسيا أكثر متعة وطرافة ، فاذا به يسأله عن الطريقة التى تجرى بهـا

المبارزات هناك ، وما اذا كانت فى روسيا نســاء جميلات ، وعن مدى صعوبة اللغة الروسية ، وعن المشاعر التى تولت سانين حين صوب اليه الضابط مسدسه .. وراح سانين ، من جهته ، يســأل الفتى عن أمه ، وعن أبيه ، وعن أعمــال الاسرة عامة ، دون أن يشير قط الى اسم جيما ، رغم تفكيره فيها دون انقطاع . والحق انه لم يكن يفكر فى جيما بقـدر ما كان يفكر فى الغد ، المجهول ، وما سيحمله اليه من سعادة وحب !

وكان يتراءى له أن ثمة ضبابا شفافا رقيقا يغشى فكره ، ووراء الضباب يتموج فى رفق وجه الهى جميل ، قــد افتر ثغره عن ابتسامة ، وأسبل حاجبيه ، واصطنع القســوة .. ولم يكن هذا الوجه وجه جيما ، بل كان وجه السعادة ذاتها ! .. ولقد دقت ساعته أخيرا ، فاختفى الحجــاب ، وانفرجت الشفتان ، وارتفع الحاجبان ، وظهرت الالهة ، وشع النور والفرح والنشوة .. الى غير نهاية . وكان ســانين ، حين يفكر فيما ينتظره من مستقبل مجهول ، تغرق نفســه مرة أخرى فى بحر من القلق والترقب .. لكن هذا القلق لم يمنعه من أن يتناول مع ايمليو غداء طيبا .. وفى لحظات خاطفة ، من حين الى آخر ، كان لا يفتأ يراوده هــذا الخــاطر : « لو عرف أحد ذلك ! .. » . ولم يمنعه قلق الانتظار كذلك من ان يلعب مع ايمليو لعبــة القفز فى الهــواء الطلق ، وســط الحقول . وفيما كان يطير ، متباعد الساقين ، كالعصــفور ، فوق ظهر ايمليو ، اذا هو يسمع نباح تارتاجليا عنيفا حادا ،

فما أن التفت الى الوراء ، حتى لمح ، عند طرف الحقل ، ضابطين عرف فيهما على الفور غريم الامس « دنهوف » وشاهده « فون ريشتر » ! .. وكان كل من الضابطين قد وضع على عينيه «مونوكل» ، وأخذ ينظر ويبتسم. فتوقف سانين فورا ، وخف يرتدى معطفه بسرعة ، وأمر ايمليو أن يحذو حذوه ، ثم تابع الاثنان سيرهما عائدين الى المنزل . فوصلا الى فرنكفورت فى وقت متأخر .. وقال ايمليو وهو يودع سانين :

- سوف يؤنبوننى .. ولكن لا بأس .. ما كان أمتع هذا النهار الذى قضيته بصحبتك !

وحين عاد سانين الى الفندق ، وجد بطاقة وصلته من جيما ، وفيها تضرب له موعدا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى فى احدى الحدائق العامة المنتشرة فى فرنكفورت . وأحس الشاب بقلبه يخفق بشدة ، وبسعادة طاغية تتملكه باطاعة أوامر جيما فى غير تردد .. وراح يتصور الهناء الذى يدخره له الغد الفريد الذى ، وان يكن لا يعلم عنه شيئا ، الا انه كان آتيا لا ريب فيه !

والتهم سانين رسالة جيما بنظره مرة أخرى .. وبدا له الحرف « ج » - وهو الحرف الاول من اسم جيما ، الذى ذيلت به رسالتها - اشبه بأصابعها اللدنة الناعمة الجميلة .

وتذكر فجأة أن شفتيه لم تلامسا بعد هذه اليد ولو مرة واحدة ، فقال لنفسه : « ان الايطاليات ، على خلاف ما يظن الناس عامة ، ذوات عفة وقسوة .. وجيما أعف من غيرها

أيضا ، وأقسى ! .. آه ، أيتها الملكة .. بل أيتها الالهة .. وأيتها المرمر البكر ، الطاهر ، النقى .. ولكن الوقت آت ، وما غد ببعيد ! » .. لقد كان فى فرنكفورت ، فى تلك الليلة ، رجل سعيد .. وما لبث سانين ان غشيه النوم ، وقديما قال الشاعر : « أنام والقلب ساهر » .. وكان قلبه يخفق خفقانا واهنا ، كجناح فراشة تعلقت بزهرة ، تحت أشعة صيف !

- ٢٧ -

استيقظ سانين منذ الساعة الخامسة من الصباح ، وما ان دقت الساعة السادسة حتى كان قد ارتدى ملابسه، وفى السادسة والنصف كان يطوف فى الحديقة ، بالقرب من المكان الذى عينته له جيما فى رسالتها . . وكان الصباح هادئا ، فاترا ، أشهب . وكان يلوح بين الفينة والاخرى أن السماء توشك أن تمطر . ومع ذلك فحين كان المرء يمد يده ليتبين ما اذا كان هناك مطر ، لم يكن يشعر بشىء ، رغم أنه كان يستطيع أن يميز على كم معطفه قطرات ماء كأنها اللآلىء الصغيرة .. وكان النسيم ساكنا راكدا ، والاصوات لا تطير بل تنتشر فى الهواء . وعن بعد ، كان ثمة بخار أبيض يتكاثف فى بطء . وكان الجو معطرا معبقا بشذى أزهار الأكاسيا .

ولم تكن الحوانيت قد فتحت أبوابها بعد ، الا أن المرء كان يلمح فى الشارع بعض المارة ، ويسمع من حين الى آخر قرقعة عجلات احدى العربات وهى تجرى وحيدة فى

الشارع . ولم يكن فى الحديقة أحد يتنزه . وكان البستانى ينظف ممرات الحديقة على مهل . ومرت عجوز عرجاء تتدثر بمعطف من جوخ أسود ، فخفق قلب سانين ، وتابعها ببصره ، رغم أنه لم يكن يتصور أن يكون ذلك المخلوق هو جيما ..

ودقت ساعة البرج السابعة ، فتوقف سانين فى قلق ولهفة . وراح يتساءل : « أتراها لن تأتى ؟ » وسرت فى جسمه رعدة شديدة ، حين سمع وراءه وقع خطوات رشيقة ، وحفيف ثوب امرأة . فالتفت ، فاذا هى فتاته . وكانت جيما واقفة فى الممر خلفه ، وقد ارتدت وشاحا أشهب ، ووضعت على رأسها قبعة . وألقت جيما نظرة طويلة على سانين ، ثم أشاحت برأسها الى الجهة الأخرى . فلما أقبلت أخيرا بجواره ، حثت خطاها ، وتقدمته . وناداها سانين بصوت خافت : « جيما ! » ، فهزت رأسها قليلا ، وواصلت سيرها . فتبعها الشاب . وكان قلبه يخفق ، وساقاه لاتكادان تقويان على حمله !

وتجاوزت جيما مبنى الحديقة ، وسارت يمنة ، ثم انعطفت نحو الحوض الذى كان يستحم فيه أحد العصافير ، ودارت حول مجموعة من الأشجار ، فأخذت مكانها على مقعد منزو ، بعيدا عن الانظار ، ثم لحق بها سانين ، فجلس الى جانبها . . وانقضت دقيقة لم ينطق أحدمنهما خلالها بكلمة . ولم تلتفت جيما نحو صاحبها ، ولا نظر سانين الى وجه الفتاة ، وانما راح يحملق فى يديها اللتين كانتا تضمان احدى

المظلات .. ترى فيم كان يمكن أن يتحدثا ؟.. وأى اعتراف أبلغ من وجودهما معاً فى ذلك المكان ، وأروع من لقائهما فى هذه الساعة من الصباح ، وأقوى من جلوسهما جنبا الى جنب فى ذلك الركن النائى المنعزل ؟!.. وما لبث سانين أن سألها هامسا :

ـ ألست غاضبة ؟

وأدرك أن سؤاله كان سخيفا غبيا ، ولكنه ارتاح ـ مع ذلك ـ لأنه استطاع ان يقطع به صمت الفتاة ، اذ أجابته هذه فى دهشة :

ـ أنا ؟ .. غاضبة ؟ .. لماذا ؟ .. أبدا !

ـ وأنت تصدقيننى، أليس كذلك؟..هل صدقت ما..؟

ـ ما قلته فى رسالتك ؟

ـ نعم .

وأطرقت جيما ، ولم تجب. وانزلقت المظلة من بين يديها ، ولكنها تداركتها قبل أن تقع على الارض.. واردف سانين :

ـ نعم ، ثقى بما قلته لك ، وصدقى كل ما كتبته اليك !

وسرعان ما تخلص الشاب من خجله ، فانطلق يتكلم بحرارة . وهتف :

ـ اذا كان هناك شىء صادق فى هذا العالم ، فهو الحب العميق الذى أحمله لك .. اننى أحبك حبا جنونيا !!

والقت عليه جيما نظرة مختلسة ، فكادت المظلة أن تسقط من بين يديها مرة أخرى على الارض . وصاح سانين :

ـ صدقينى .. صدقينى !

وكان يضرع اليها ، ويمد يديه نحوها ، ولكنه لم يجرؤ على لمس أصابعها . واستطرد يقول :

– كيف السبيل الى اقناعك ؟

فنظرت اليه جيما مرة أخرى ، ثم قالت :

– يا سيد ديمترى ، حين جئت الى منذ ثلاثة أيام لتنصحنى ، ألم تكن تعرف بعد ؟ .. ألم تكن تشعر بعد ؟

– نعم .. لا .. أعنى .. كنت أشعر ، ولكننى لم أكن أعرف .. لقد أحببتك منذ رأيتك ، ولكننى لم أدرك اذ ذاك قدر مكانتك عندى ! .. قالوا لى انك مخطوبة .. وهل كان فى وسعى ان أصد أمك ، وأن أرفض ما كلفتنى به ؟ **ثم اننى ، على كل حال ، قد قدمت النصح على نحو يتيح لك أن تدركى ..**

وهنا سمع وقع خطوات ثقيلة .. كان ثمة رجل بدين بعض الشىء ، يحمل على ظهره حقيبة سفر ، وقد بدا انه أحد السواح . وكان قد خرج من وراء الاشجار ، فلما لمح الشابين ، لم يتحرج من النظر اليهما – على عادة الاجنبى – ثم سعل ، ومضى فى طريقه .. واستأنف سانين حديثه ، بعد أن ابتعد وقع الخطوات ، فقال :

– لقد أخبرتنى أمك أن فسخ خطوبتك فضيحة ، واننى سأكون فى هذه الحالة قد أثرت حول الأسرة الأقاويل .. فمن واجبى اذن أن أنصحك بالتفكير فى الأمر ، قبل أن ترفضى خطيبك السيد كلوبر !

وقالت جيما ، وهى تمر بيدها على شعرها من جهة سانين :

ـ لا تدعو السيد كلوبر خطيبى بعد الآن ! .. فلن أكون زوجته ، وهو يعرف ذلك !

ـ هل نقلت اليه النبأ ؟ .. متى ؟

ـ أمس !

ـ اليه شخصيا ؟

ـ اليه شخصيا .. لقد جاء أمس الى بيتنا .

ـ جيما .. أأنت تحبيننى اذن ؟

ـ أكنت أجىء الى هنا لولا ذلك ؟ !

وفاهت جيما بعبارتها وهى تلتفت الى سانين . ثم استقرت يدا الفتاة على المقعد . فتناول سانين اليدين الساكنتين المنبسطتين؛ ورفعهما الى عينيه ثم الى شفتيه . واذ ذاك أحس بأن الغشاوة التى كانت تحجب المستقبل بالأمس قد زالت عن عينيه ، فها هى ذى السعادة تطل عليه بوجهها المشرق ! .. وتطلع سانين الى جيما ، بلا خوف . وكانت الفتاة تنظر اليه بدورها ، وقد خفضت حاجبيها . وكانت نظرة هاتين العينين المسبلتين ، وما يشع منهما من ضياء واهن تحجبه دموع عذبة ، تملأ قلب الشاب بسعادة دافقة . ولم تكن جيما تبتسم ، أو لعلها كانت تبتسم ابتسامة صامتة تضىء وجهها .. وأراد سانين أن يضم الفتاة الى صدره ، ولكنها تحولت عنه ؛ وهزت رأسها ، دون أن تتغير ملامح وجهها ، وكأنها كانت تقول بعينيها الفاتنتين « مهلا ، مهلا ! . » . فهتف سانين :

ـ آه يا جيما ، هل كنت أستطيع أن آمل أن تحبينى (١) فى يوم من الأيام ؟ !

وكان قلب الفتى يهتز كأنه وتر مشدود ، وهو يخاطبها لأول مرة بصيغة المفرد . وما لبثت أن قالت له جيما فى رقة بالغة :

ـ أنا أيضا لم أكن أظن ذلك ..

ـ وهل كان فى وسعى ، حين وصلت الى مدينة فرنكفورت التى كنت أظن أننى سأقضى فيها بضع ساعات فحسب ، أن أتوقع أننى واجد فيها سعادة حياتى كلها ؟

ـ حياتك كلها ؟ هل هذا صحيح ؟

ـ نعم ، حياتى كلها .. الى الابد .. الى الابد !

قال سانين ذلك وقد ازداد حماسه .. وكان مشط البستانى يحرك التربة على بعد خطوتين من المقعد الذى كان يجلس عليه الشابان . فقالت جيما :

ـ هيا بنا نعود .. هل توافق ؟

ولو أن جيما سألت سانين ، فى تلك اللحظة ، أن يلقى بنفسه فى البحر لأسرع يفعل ، قبل أن تتم عبارتها ! .. وخرج الاثنان من الحديقة ، واتجها نحو الحانوت عن طريق الضاحية ، اجتنابا لشوارع المدينة المزدحمة !

---

(١) كان سانين يخاطب « جيما » بصيغة الجمع ، وهو المألوف عند القوم قبل زوال الكلفة بين المتخاطبين ، وكانت هذه أول عبارة يخاطبها فيها بصيغة المفرد !

- ٢٨ -

كان سانين يسير الى جانب جيما تارة ، ويتخلف عنها تارة أخرى . وكان لا يتحول عنها ببصره قط ، بل يبتسم لها على الدوام . وكانت جيما تسرع الخطى حينا وتبطئها حينا آخر ، وكان الاثنان يسيران وكأنهما فى حلم ، هو شاحب ، وهى متوردة الخدين من فرط الانفعال !

وكان هذا الامتزاج ، الذى تم بين روحيهما منذ لحظات ، قد جاء قويا ، مفاجئا ، جديدا ، مقلقا : حتى لقد شعرا بأن حياتهما قد أصابها تبدل شامل لم يكن فى الحسبان ، فصارا لا يكادان يدركان ما وقع لهما ، وخيل اليهما أن اعصارا يحملهما الآن أشبه بذلك الذى أوشك ذات مساء أن يلقى بكل منهما فى حضن الآخر !

وكان سانين يحدق فى جيما أثناء سيره ، وكأنه يراها لأول مرة .. كان يلاحظ فى خطواتها وايماءاتها خصائص لم يتبينها من قبل ، وأصبحت هذه الأمور التافهة لها أهميتها البالغة عنده . وكانت جيما تحس بما تحدثه فى نفس الشاب من أثر .. **لقد كان كل منهما يقع فى الحب لأول مرة ، وكانت معجزات الحب كلها تعتمل فى نفسيهما ! .. فالحب الأول ثورة تحدث انقلابا فى مجرى الحياة التى تسير على وتيرة واحدة ، ويقع هذا الانقلاب فى لحظة خاطفة ، فيصعد الشاب على المتراس ، ويغرس هنالك رايته الساطعة التى تخفق عاليا ، لا يحفل بما ينتظره ـ موتا كان أو حياة جديدة ـ**

فهـو يعيش اليوم الجـديد الذى يشرق ، كائنـا ما كان ، ويتحدى المستقبل !

وصاح سانين وهو يشير بأصبعه الى شخص ملفع يحاذى الحائط ، ويسير بسرعة ، محاولا الا يراه أحد :

ـ عجبا ! لكأنه ..

وكان سانين ، فى غمرة هذا البحر من السعادة ، يشعر بأنه فى حاجة الى أن يحدث جيما ، ليس فى الحب ـ فهـذا الحب أمر مقدس مفروغ منه ! ـ بل فى شىء آخر .. وقالت جيما فى حبور :

ـ نعم ، انه بانتاليون . وأغلب الظن انه تبعنى .. فلقد ظل أمس يلاحقنى طوال النهار .. لقد حدس !

ـ حدس ؟ !

وردد سانين كلمة جيما فى نشوة . وراح يتوسل اليها أن تقص عليه كل ما حـدث البارحة . فبـدات جيمـا تروى قصتها فى تعجل ، فكانت تتعثر ، ثم تقطع كلامها لتنظر الى سانين ، ولتتنهد . واخذا يتبادلان نظرات سريعة مشرقة . ثم أبلغته انه بعد المناقشة التى دارت بينها وبين أمها منذ يومين ، أرادت السيدة روزيلى أن تنتزع منها جوابا حاسما ، ولكنها استطاعت أن تستمهلها الى اليوم التالى ، ولم تكن هذه المهلة بالأمر الذى يسهل الحصول عليه من السـيدة روزيلى ، لـكن جيما ظفرت بها مع ذلك ! .. وقالت جيما انها بينما كانت تحدث أمها ، اذا بالسيد كلوبر يصل على غير موعد . وكان أكثر سخفا وجمودا منه في أي وقت مضي ،

وطفق يصب كل ما فى نفسه من استياء على العمل الصبيانى الذى قام به الشاب الروسى ، والذى جرح كرامته جرحا عميقا .. وارادت الفتاة ان توضح لسانين ما قصد اليه كلوبر ، فقالت :

ـ انه يقصد بالعمل الصبيانى المبارزة التى قمت بها أنت .. وقد طلب من أمى أن تغلق الباب فى وجهك بحجة أن « هذا الروسى قد لطخ شرفى (وأخذت جيما تقلد نبرة كلوبر وحركاته) ، فلقد كانت مهمة الدفاع عن خطيبتى تقع على عاتقى أنا ، لو اننى رأيت أن ثمة جدوى من ذلك أو ضرورة ! .. أن فرنكفورت كلها ستعلم غدا ان أجنبيا قد تبارز مع أحد الضباط بسبب خطيبتى . فماذا عسى أن يكون معنى هذا ؟ .. ان هذا العمل الصبيانى ، الذى قام به الروسى ، ليلطخ شرفى » . ووافقته أمى على رأيه .. أما أنا ، فأخبرته بأنه لا يجدر به أن يقلق ، فشرفه مصون ، وكذلك شخصه ، وأن عليه الا يحفل بالاقاويل التى سيلفقها الناس عن خطيبته ، لأننى لم أعد خطيبته بعد الآن ، ولن أكون زوجته ..

والحق أننى كنت أنوى أن أتحدث اليك قبل أن أكاشفه بالقطيعة الحاسمة ، ولكنه كان أمامى ، ولم استطع أن أكبح جماح نفسى .. فأخذت أمى تصرخ ذعرا وهولا . وخرجت أنا من الغرفة ، لأعود بعد قليل أحمل للسيد كلوبر خاتم الخطبة الذى كنت قد خلعته منذ يومين . وانزعج السيد كلوبر انزعاجا شديدا ، ولكنه ـ لفرط أنانيته وغروره ـ لم يعلق على ذلك أهمية ، ثم انصرف .. وانك لتدرك أننى تألمت

كثيرا لألم أمى . فقد عز على أن أراها حزينة ، حتى لقد قلت لنفسى : « لعلنى تسرعت قليلا » . لكن رسالتك كانت معى . ثم اننى ، حتى بغير تلك الرسالة ، كنت أحس ..

– أننى أحبك ..

– نعم ، أنك بدأت تحبنى !

***

وكانت جيما تقص ذلك على سانين بلهجة سريعة ، وهى بتبسم تلك الابتسامة الساحرة ، فاذا مر قربهما أحد ، خفضت صوتها ، أو لاذت بالصمت . وكان سانين يصغى فى حديثها مفتونا ، وقد أعجب بصوتها كما أخذ بالأمس بخطها .. وما لبثت ان استأنفت جيما كلامها فى تدفق ، فقالت :

– ان أمى مستاءة أشد الاستياء ، وهى لا تفهم أن يصبح السيد كلوبر عندى انسانا لا يطاق ولا يحتمل ، ولا أننى رضيت به قبل ذلك عن غير حب اذعانا لمشيئتها وحاجتها . وهى تشتبه فيك أنت ، حتى لقد أصبحت مقتنعة بأننى أحبك ! .. وانه ليحز فى نفسها أكثر من أى شىء آخر أن ذلك لم يخطر لها ببال ، وأنها كانت حتى أمس فقط ترجوك أن تنصحنى .. يا لها من مهمة غريبة ، أليس كذلك ؟ وهى تدعى الآن أنك محتال ، وأنك استغللت ثقتها بك ، بل أنها تتنبأ لى بأنك ستغدر بى !

وهتف سانين :

– كيف يا جيما ؟ ألم تقولى لها ؟

ـ لم أقل لها شيئا .. وكيف أبيح لنفسى أن أقول لها أى شيء قبل أن أتحدث اليك ؟ !

فضرب سانين كفا بكف ، وقال :

ـ جيما ، أرجو الآن أن تفضى اليها بكل شيء .. خذينى أولا اليها .. أريد أن أبرهن لأمك على أننى لست بالرجل المخادع !

وكان صدر سانين يعلو بتأثير ذلك التدفق العارم من العواطف النبيلة الحارة . ونظرت اليه جيما نظرة فاحصة ، وقالت :

ـ أحقا ؟ أتريد أن تأتى معى الى أمى فورا لتحدثها فى الأمر ؟.. أتريد أن تأتى الى أمى التى ترى أن هذا كله عبث ، وأنه لن يقدر له أن يتحقق قط ؟ !

وكانت ثمة عبارة لم تجرؤ جيما على أن تنطق بها ، رغم انها كانت تحرق شفتيها حرقا . فتولى سانين النطق بها ، نيابة عنها :

ـ ان أصبح زوجك يا جيما .. تلك سعادة لا تقاس بها سعادة !

ولم يبق هناك حدود لحبه ، ونبل قلبه ، وصدق عزمه . فلما سمعت جيما كلامه ، توقفت عن السير ، ثم استحثت خطاها مسرعة . ولعلها كانت تريد بذلك أن تهرب من تلك السعادة التى بلغت من العنفوان والمباغتة أنها لم تكد تستطيع احتمالها !.. وترنحت ساقاها فجأة .. فعند ناصية شارع صغير ، وعلى بعد بضع خطوات منهما ، لاح السيد كلوبر

مرتديا قبعة جديدة ، منتصبا كسهم ، أشعث الشعر أشبه بكلب مجعد الوبر . فلما رأى جيما ، وعرف سانين . أحنى قامته وهو يضحك ساخرا ، ثم تقدم منهما . فكان الشعور الأول الذى استبد بسانين هو الاحتقار ، لكنه ما أن رأى وجه السيد كلوبر الذى حاول أن يظهر دهشته وازدراءه واشفاقه ، ما أن رأى ذلك الوجه الاحمر المبتذل ، حتى استعر فى نفسه الغضب ، فتقدم خطوة الى الأمام . لكن جيما أمسكت بيده ، وجذبتها اليها ، ثم راحت تنظر الى خطيبها السابق نظرة ملؤها العزة والصرامة . فطرف السيد كلوبر بعينيه ، وتضاءل ، ثم مر سريعا الى جانب الشابين ، وهو يدمدم بين أسنانه بكلمات : « هكذا تنتهى الأغنية ! » ، ثم ابتعد بقامته المتراقصة . واذ ذاك صاح سانين :

ـ ماذا قال هذا الوقح ؟

وأراد أن يهرع وراء كلوبر ، لكن جيما أمسكت به ، وأبقت ذراعها فى ذراعه ، وسارا معا . وان هى الا لحظات حتى ظهر لهما الحانوت . فتوقفت جيما مرة أخرى ، وقالت لسانين :

ـ ديمترى ، يا سيد ديمترى ، اننا لم ندخل بعد ، ولا تحدثنا فى الامر الى أمى ، وما يزال لديك متسع من الوقت للتفكير .. انك ما تزال حرا يا ديمترى !

وكان رد سانين على هذا الكلام أن شد ذراع جيما الى صدره بقوة ، وسار بها الى البيت . وقالت جيما فور وصولها الى حجرة المدخل :

ـ أماه .. لقد جئتك بخطيبى الحقيقى !

- ٢٩ -

لو أن جيما قالت لأمها انهـا جاءتها بالطاعون ، أو أقبلت تحمل اليهـا الموت ، لما أظهرت السـيدة ليونور من الألم ، والذعر ، واليأس ما ابدته عند سماعها كلام ابنتها . فقد هرعت الى ركن من الغرفة ، واعتصمت به ، وأدارت وجهها الى الجدار ، ثم راحت تجهش بالبكاء فى عويل وأنين . فبدت اذ ذاك كفلاحة روسية تنتحب على قبر زوجها أو ابنها ! .. وقد بلغ الامر بجيما من شدة تأثرها بهذا الاسـتقبال ، أنها لم تجرؤ على الاقتراب من أمها ، بل ظلت واقفة فى وسـط الغرفة ، جامدة كالتمثال . ولم يعرف سانين كيف يضبط أعصابه ، حتى لقد أوشك أن يقتدى بالسيدة ليونور !

واستمر هذا الحزن، الذى لم يستطع شىء أن يذهب به ، ساعة كاملة . وقد وجد بانتاليون أن من الخير أن يغلق باب الحانوت بالمفتاح ، حتى لا يسـتطيع أحد أن يدخل . ومن حسن الحظ أن وقت توافد العملاء لم يكن قد حان بعد . وكان الرجل العجوز يشعر باضطراب شديد ، اذ لم يكن يحبذ هذا التعجل فى مسلك جيما وسانين . ولكنه لم يجرؤ على لومها ، بل ظل مستعداً لأن يقدم لها العون والمسـاندة كلمـا دعت الضرورة الى ذلك . فانه لم يكن يميل قط الى السيد كلوبر .. أما ايمليو فقد ملأه الزهو لأنه كان الوسيط بين صديقه وأخته ، وكان يحس بغبطة وارتياح لأن الامور جرت على هذا النحو . ولم يكن يدرى سببا لحزن أمه ، بل كان يرى أن جميع النسـاء — حتى أرجحهن عقلا — انمـا

يعوزهن شيء من الحكمة والتعقل .. على أن سانين كان اكثرهم تألما ، وكان كلما هم بالاقتراب من السيدة روزيلى ، صرخت وأبدت تهيجا عنيفا . وقد حاول عدة مرات أن يقول لها عن بعد : « لقد جئت اليك ، أخطب ابنتك . » ، لكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح !

وكانت السيدة ليونور تحقد على نفسها لغفلتها ، ولا تغفر لها تلك الغفلة. وكانت لا تفتأ تردد : «لو كان جيوفانى باتيستا حيا ، لما وقع شيء من هذا الذى حدث ! » . وقال سانين لنفسه : « ترى كيف سننتهى من هذه الأمور يارب .. لقد تبلد ذهنى ، ولم أعد أدرى ماذا افعل ! » .. وكان يخاف من مجرد التطلع الى جيما ، وكانت جيما لا تجرؤ على أن ترفع نظرها اليه ، بل تكتفى بمعاونة أمها التى كانت ترفض تلك المعاونة فى أول الأمر !

ثم أخذت العاصفة تهدأ شيئا فشيئا . فقد انقطعت السيدة ليونور عن البكاء ، وسمحت لابنتها بأن تقودها من الركن الذى لاذت به ، وتجلسها على مقعد كبير قرب النافذة ، وتأتى لها بكوب من الماء المحلى بزهر البرتقال . لكنها ظلت تمنع سانين من الاقتراب منها ، قائلة : « أما أنت فلا ! » . ومع ذلك فقد احتملت بقاءه فى الغرفة ، بعد أن كانت تصر على طرده منها ، وسمحت له بأن يتكلم دون أن تقاطعه !

وسرعان ما استغل سانين هذه الفرصة ، فراح يظهر فى حديثه فصاحة منقطعة النظير .. ولعله ما كان ليقدر على كشف عواطفه ونواياه بمثل هذه القوة فى الحجة والاقناع ،

لو انه كان يتحدث أمام جيما وحدها .. لقد كانت عواطفه صادقة ، ونواياه طاهرة ، فكانت أشبه بعواطف « ألمافيفا » ونواياه فى مسرحية (حلاق أشبيلية) !!.. على أنه لم يحاول أن يخفى عن السيدة ليونور ، ولا عن نفسه ، ما كان فى وضعه من أمور ظاهرة غير مشجعة . فقد كان رجلا غريبا ، لم تعرفه الأسرة الا منذ بضعة أيام ، ولم تعلم شيئا واضحا لا عن مركزه ، ولا عن وسائل عيشه . ولكنه ذكر أنه مستعد لتقديم براهينه واسانيده ، فهو من أسرة محترمة ، وعلى شىء من الثراء ، وفى وسعه أن يستشهد على ذلك بعدد كبير من أهل بلده . ثم قال انه يأمل أن يستطيع اسعاد جيما ، وأن ينجح فى تخفيف ما ستشعر به من ألم لفراق أسرتها .. وكادت كلمة الفراق هذه أن تفسد كل شىء ، اذ ما أن سمعتها السيدة ليونور ، حتى اضطربت فى مقعدها ، فأسرع سانين يستطرد مؤكدا بأنه سيكون فراقا الى حين ، وانه قد يمكن اجتنابه على كل حال !

وسرعان ماجنى سانين ثمرات بلاغته . فقد رضيت السيدة ليونور أخيرا أن تنظر اليه ، وزال ما كان على وجهها من غضب واشمئزاز ، ولم يعد يرتسم عليه الا تعبير عن الألم والعتاب . ومع انها استمرت فى تحسرها ، الا أن حسرتها كانت أكثر أعتدالا ورقة ، وأصبحت تقطعها باسئلة توجهها تارة الى سانين وتارة أخرى الى جيما . ثم سمحت للشاب الروسى بأن يأخذ بيدها دون أن تفكر فى سحبها . وسرعان ما عاودها البكاء ، الا انه كان بكاء هادئا صامتا . وعلت

وجهها أخيرا ابتسامة حزينة ، ثم عبرت مرة أخرى عن أسفها لعدم وجود جيوفانى باتيستا على قيد الحياة حتى يرى أولاده ويرعاهم !

وان هى الا لحظة حتى كان سانين وجيما يركعان عند قدميها ، فوضعت يدها على رأسيهما لتباركهما . ولم يلبث الشابان ان نهضا ، وقبلا السيدة ليونور . وأقبل أيمليو الى الغرفة مشرق الوجه من فرط السعادة ، وراح بدوره يقبل الجمع المتشابك . ثم القى بانتاليون نظرة على الغرفة ، وابتسم ، ولكنه ما لبث أن عبس مرة أخرى ، واتجه الى الحانوت ليفتح باب الدخول !

- ٣٠ -

كان الانتقال من الذعر الى الحزن ، ومن الحزن الى الاستسلام الرقيق ، قد جرى فى نفس السيدة ليونور بسرعة ، ثم ما لبث أن استحال ذلك الاستسلام الى رضى دفين ، راحت تخفيه احتراما للتقاليد . وكان سانين قد ملك قلب السيدة ليونور منذ اليوم الأول . فلما أدركت أنه سيغدو صهرها ، لم تزعجها الفكرة ، ولكنها رأت من الضرورى أن تظهر بمظهر من أسىء اليه أو من استبد به القلق . ثم أن جميع الأحداث التى وقعت منذ بضعة أيام ، كانت قد تعاقبت بسرعة خارقة . وكانت السيدة ليونور امرأة عملية ، لذلك رأت من واجبها أن تستجوب سانين استجوابا دقيقا . وأخذ الشاب ـ الذى لم يكن حتى ذلك

الصباح نفسه ، عند لقائه بجيما ، ليفكر فى الزواج ، اذ كان جل همه منصرفا فى تلك اللحظة الى هواه – يمثل دور الخطيب الجاد ، فكان يجيب راضيا ، وفى اسهاب ، عن جميع الأسئلة التى تطرحها عليه السيدة روزيلى !

فلما أيقنت أم جيما أن سانين كان ينتمى الى طبقة النبلاء – وقد أدهشها قليلا أنه ليس أميرا ! – اصطنعت هيئة الجد ، وقالت له فى غير مواربة انها ستكون صريحة معه الى أقصى حدود الصراحة ، لأن ذلك هو الواجب المقدس الذى يقع على عاتق كل أم . فأجابها سانين بأن ذلك عين ما كان يريده ، ورجاها الا تتحرج فى مكاشفته بما فى نفسها . واذ ذاك ابلغته السيدة ليونور أن السيد كلوبر (وحين نطقت باسمه ،تنهدت قليلا ، وعضت على شفتيها ، ثم توقفت لحظة عن الكلام) خطيب جيما السابق ، كان له دخل يبلغ ثمانية آلاف جنيه ، وان ذلك المبلغ كان لا ينى يزيد كل عام .. ثم استطردت تسأل سانين : « وأنت ما دخلك ؟ » .

فأجابها سانين ببطء :

– ثمانية آلاف جنيه ؟ ان هذا المبلغ يعادل خمسة عشر ألف روبل .. ان دخلى دون ذلك ، فأنا أملك أرضا فى ولاية تولا ، فان أحسنت استثمار هذه الارض ، درت على خمسة آلاف أو ستة آلاف روبل . وسأتقدم الى أحدى وظائف الدولة ، وسيكون مرتبى منها ألفى روبل !

– وظيفة فى الدولة ؟ فى روسيا ؟ .. اذن سأنفصل عن جيما ؟

فبادر سانين يطمئنها بقوله :

ـ انها وظيفة فى السلك الدبلوماسى .. ان لى علاقات كثيرة ، ولا شىء يمنعنى اذن من أن أعيش فى الخارج .. **اصغى الى ! ان أفضل حل هو أن أبيع الارض التى أملكها ، وأن استثمر ثمنها رأسمالا فى أحد المشروعات .. ومن الممكن أن يتناول هذا المشروع تحسين متجركم وتوسيع اعماله !**

وكان سانين يدرك تماما أنه انما يقول أشياء بعيدة عن الحكمة ، لكنه كان يحس بأنه من الجرأة بحيث يستطيع الاقدام على أية تضحية .. كان حسبه أن يلقى نظرة على جيما ـ التى لم تكن تكف ، منذ أخذت أمها تتحدث « فى أمور عملية » ، عن الذهاب والمجىء فى الغرفة ، والتحرك بلا سبب ـ حتى يشعر بأنه مستعد لأن يقبل فورا على كل ما يطلب منه ، ما دامت فتاته راضية .. وقالت السيدة ليونور بعد لحظة تردد :

ـ لقد كان السيد كلوبر ينوى أن ينقدنى مبلغا من المال لتحسين متجرنا !

فصاحت جيما :

ـ أمى .. أمى .. أرجوك !

ـ بل يجب ترتيب هذه الأمور منذ الآن يا ابنتى !

ثم أخذت السيدة روزيلى تسأل سانين عن قوانين الزواج المعمول بها فى روسيا ، وما اذا كان يحظر هنالك على الروسى أن يتزوج من كاثوليكية ، كما هى الحال فى بروسيا ! .. وكانت ألمانيا كلها فى ذلك العهد ـ عام ١٨٤٠ ـ تتحدث عن

الخصومة التى نشبت بين الحكومة البروسية وبين أسقف كولونيا بشأن الزواج المختلط !

ومع ذلك، فحين علمت السيدة روزيلى أن ابنتها ستصبح من طبقة النبلاء ، اذ تتزوج من نبيل ، لم تخف رضاها عن هذا الزواج ، وانما هتفت فجأة تسأل :

ـ ولكن هل يجب أن تذهب الى روسيا قبل أن تتزوج ، لتحصل على ترخيص بزواجك ؟

فأكد لها سانين بأنه لم يكن فى حاجة الى ترخيص بالزواج، ولكنه قد يضطر الى العودة الى روسيا لمدة قصيرة ، ليبيع أرضه ، ويحصل على المال الذى كان فى حاجة اليه . وقد انقبض صدر سانين من مجرد الحديث عن السفر . وحين نظرت اليه جيما ، ادركت أنه يتألم ، فتضرج وجهها ، وظلت مطرقة تفكر . وقالت السيدة ليونور ، تخاطب سانين :

ـ ستأتينى من روسيا بفراء من « الأستراكان » .. فقد سمعت أنه ممتاز فى روسيا ، وأنه ليس باهظ الثمن أبدا !

ـ بكل سرور ، وسآتى بفراء لجيما أيضا !

وهنا قال ايميليو ، وهو يطل برأسه من باب الغرفة الأخرى :

ـ أما أنا ، فأريد قبعة من الجلد الروسى ، مطرزة بالفضة .

ـ حسنا .. ولبانتاليون حذاءان .

فقالت السيدة ليونور :

ـ لا داعى ، لا داعى ..

ثم استطردت :

ـ لنعد الى الجد .. لقد قلت أنك ستبيع الارض ، فهل ستبيع معها الفلاحين ؟

فأحس سانين ، عند سماعه هذا السؤال ، بوخز فى جسمه . فقد تذكر أنه حين تناقش مع السيدة روزيلى وابنتها فى موضوع تجارة الرقيق ، أظهر اعتراضه على هذا النظام واستنكاره له ، وقال انه لا يمكن أن يبيع عبيده بأى ثمن ، لأنه يرى فى ذلك تجارة منافية للأخلاق .. وأجاب محدثته فى شيء من الاضطراب :

ـ سأحاول أن أبيع أرضى لشخص أعرف فيه الرحمة والانسانية .. أو لعل الفلاحين عندى يؤثرون أن يشتروا حريتهم ..

فقالت السيدة ليونور :

ـ ذلك خير حل ، لأن بيع كائنات انسانية أمر ..

ـ بربرى .. وحشى !

كان الذى قاطع أم جيما هو بانتاليون ، وقد تدخل فى الحديث وهو يمد رأسه من وراء ايميليو ، ثم هز ذؤابته واختفى .. قال سانين لنفسه ، وهو يختلس النظر الى جيما : « حقا ان ذلك ليس بجميل ! » . وكان يبدو على الفتاة أنها لم تسمع كلماته الأخيرة . فقال سانين لنفسه مرة أخرى : « ستحل الأمور على كل حال » . ثم استمرت المناقشة بينه وبين السيدة ليونور حتى الغداء !

وما لبثت السيدة ليونور ـ فى النهاية ـ ان راحت تعامل

سانين فى مودة كبيرة ، فاذا بها تخاطبه باسم ديمترى ، وتهدده بأصبعها فى لطف ، وتقسم لتعاقبنه على مكره ..
ومضت توجه اليه أسئلة دقيقة عن قرابته ، قائلة : « هذا أمر هام جدا ! » . وطلبت اليه أن يصف لها حفلات العرس فى طقوس الكنيسة الروسية ، وقدملأتها النشوة اذ تصورت ابنتها جيما فى ثياب العرس البيضاء ، وعلى رأسها تاج من ذهب . فأردفت تقول فى زهو الأم :

— ان بنتى جميلة ، كملكة .. بل هى أجمل من ملكة !

فهتف سانين :

— فى العالم جيما واحدة ، لا اثنتان !

— ومن هنا جاء اسمها ! (١)

وأسرعت الفتاة نحو أمها ، وأخذت تقبلها ، وقد أحست بعبء ينزاح عن صدرها !

وشعر سانين بسعادة دافقة ، وامتلأ قلبه بمرح كفرح الأطفال حين تصور أن الأحلام التى كانت تداعب خياله منذ قليل فى ذلك البيت ، قد أخذت تتحقق ، واستولت عليه حاجة شديدة الى العمل والنشاط ، حتى لقد أراد أن يخدم فى متجر الحلوى ، كما فعل ذلك قبل بضعة أيام . وقال لنفسه : « ان هذا الآن من حقى ، فأنا هنا فى بيتى ! » .. وراح بالفعل يعمل فى المتجر ، فقام بعمل البائع ، ووزن لصبيتين كيلو من السكاكر بدلا من نصف كيلو ، وحسب لهما الكيلو بنصف سعره أيضا .. ولما أعدت مائدة الغداء ، جلس الى

---

(١) تعنى كلمة « جيما » بالايطالية : جوهرة .

جانب جيما ، اذ اعتبر نفسه خطيبها الرسمى . وظلت السيدة ليونور تتحدث فى « الأمور العملية » ، بينما أخذ أيمليو يناشد سانين أن يصطحبه معه الى روسيا !

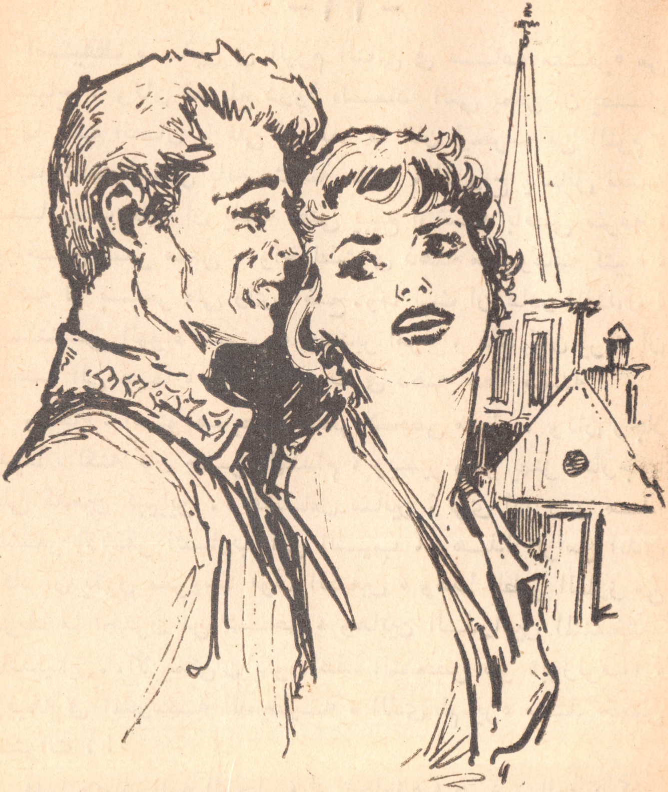
واستقر الرأى على أن يسافر سانين بعد أسبوعين.. وقد ظل بانتاليون وحده مكتئبا ، مكفهر الوجه ، حتى لقد رأت السيدة ليونور أن تقول له : « ألم تكن أنت شاهده ؟ ! » ، فرمقها بانتاليون بنظرة غريبة . أما جيما ، فقد بقيت لائذة بالصمت طوال الوقت تقريبا ، ولم يكن وجهها فى يوم من الأيام أكثر جمالا واشراقا منه فى تلك اللحظة.. وبعد الغداء نادت سانين ، وخرجت معه الى الحديقة ، فلما وصلت الى المكان الذى كانت جالسة عنده قبل يومين ، وهى تخرج ثمار الكرز من السلة وتضعها فى الطبق ، قالت له :

ـ لا تغضب يا ديمترى ، وانما أريد أن أذكر مرة أخرى بأن عليك الا تظن أنك قد ارتبطت ارتباطا لا فكاك منه .. !

ولم يدعها سانين تتم عبارتها . لكن جيما اردفت تقول ، وهى تخرج من صدرها صليبا من العقيق ، علق فى جيدها بخيط من الحرير :

ـ أما عن الأمر الآخر ، أعنى اختلاف الدين الذى تحدثت عنه أمى ، فان دينى سيكون دينك ، ما دمت قد وهبت نفسى لك !

ثم جذبت خيط الحرير فى عنف ، فلما انقطع ، دفعت بالصليب الى سانين.. وكانت عينا سانين ما تزالان مبللتين بالدموع حين عاد الى الغرفة مع جيما . وفى المساء ، كانت الأسرة كلها قد استأنفت مجرى حياتها العادية ؛ حتى لقد عكف الحاضرون على لعب الورق تمضية للوقت !



« .. اذا كان هناك شىء صادق فى هذا العالم ، فهو الحب العميق الذى أحمله لك .. أننى أحبك حبا جنونيا !! »

(صفحة ٢٢٩)

- ٣١ -

استيقظ سانين فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة من الصباح . وكان قد بلغ ذروة السعادة التى يمكن أن يصل اليها قلب انسان . على أن هذا ما كان ليحرمه من النوم ، وانما كانت تشغل باله مشكلة مالية ، اذ راح يسائل نفسه عما يجب عليه أن يفعله حتى يبيع أرضه بأقصى سرعة ، وبأحسن سعر ممكن . واختلطت فى ذهنه مشروعات كثيرة ، ولكنه لم يستقر على رأى واضح . وما لبث أن غادر الفندق ، ليستنشق الهواء المنعش ، ويتدبر أمره . فقد كان يريد أن يذهب الى جيما ، وقد اختمرت فى ذهنه خطة معينة !

وفجأة ، استوقف بصره منظر شخص مقبل . وكان رجلا بدينا ، لكنه كان حسن الهندام ، ويسير وهو يهتز متأرجحا على قدمين كبيرين .. فتساءل سانين : ترى أين رأى هذا الشعر الأشقر الضارب الى الشيب ، وهذا الرأس الذى يكاد أن يكون مغروسا فوق الكتفين ، وهذا الظهر البارز من فرط ما اختزن من شحم ، وهاتين الذراعين المنتفختين المتدليتين . . ألا يمكن أن يكون هذا الشخص هو «بوزلوف» ، رفيقه فى المدرسة الداخلية ، الذى لم يره منذ خمس سنوات ؟ !

فلما وصل اليه الرجل ، ثم تجاوزه ، هرع سانين يركض وراءه حتى تقدمه ، ثم التفت اليه ، فرأى وجها عريضا شاحبا ، وعينين صغيرتين كأنهما عينا خنزير ، لهما أهداب وحاجبان كساها الشيب ، وأنفا قصيرا أنطس ، وشفتين

مكتنزتين كأنما التصقت احداهما بالاخرى ، وذقنا مستديرة مرداء . فلم يشك سانين ، حين لمح ما كان يرتسم على هذا الوجه من امارات حدة الطباع ، والشك ، وسوء الظن ، ان صاحبه كان حقا «هيبوليت بوزلوف» .. فقال لنفسه : « لا شك أن حسن طالعى هو الذى أرسله الى ، هذه المرة أيضا ! » . ثم ناداه قائلا :

ـ بوزلوف ، هيبوليت سيدورتش ، أهذا أنت ؟

فتوقف الرجل ، ورفع عينيه الصغيرتين ، وتردد لحظة ، ثم فتح شفتيه ، وقال بصوت حاد أجش بعض الشىء :

ـ ديمترى سانين ؟

ـ بعينه !

وهز سانين احدى يدى « بوزلوف » المدسوستين فى قفازين رماديين ، والمتدليتين فى سكون على ردفيه الناتئين . وسأل صاحبه :

ـ أأنت هنا منذ مدة طويلة ؟ من أين وصلت ؟ وفى أى فندق نزلت ؟

ـ وصلت أمس من فسبادن ، لأبتاع بعض الاشياء لزوجتى ، وسأعود اليوم الى فسبادن .

ـ آه ، حقا ! .. لقد سمعت أنك تزوجت ، وأن امرأتك على جانب عظيم من الجمال !

وانزلقت عينا بوزلوف من اليمين الى الشمال حين سمع هذا الكلام ، وقال :

ـ نعم ، يقال ذلك !

فانفجر سانين ضاحكا ، ثم قال :

– أرى أنك لم تتبدل .. فما زلت على مثل ما كنت عليه من هدوء أيام الدراسة .

– وفيم التغيير ؟

– يقال أيضا (**وقد ألح سانين على كلمة «يقال» هذه**) . ان امرأتك عظيمة الثراء .

– نعم ، يقال ذلك أيضا !

– وأنت ، ألست متأكدا من ذلك ؟

– أنا ، يا عزيزى ، لا أتدخل فى شئون زوجتى !

– ولا فى أى شأن من شئونها ؟

– ولا فى أى شأن من شئونها .. انها تسير فى طريقها ، وأنا أسير فى طريقى !

وانزلقت عيناه مرة أخرى . ثم سأله سانين :

– الى أين أنت ذاهب الآن ؟

– لست ذاهبا الى أى مكان.. سأبقى فى الشارع أجاذبك أطراف الحديث ، حتى اذا حان وقت الغداء ، ذهبت الى الفندق ، وتناولت غدائى !

– هل تحب أن أرافقك ؟

– فى الغداء ؟

– أجل .

– بكل سرور .. ان تناول الغداء مع شخص آخر أمر أكثر متعة دائما . ولكنك لن تثرثر كثيرا ، أليس كذلك ؟

ـ كلا ..

ـ حسنا .

***

واستأنف بوزلوف سيره ، ومشى سانين الى جانبه . والتصقت شفتا بوزلوف مرة أخرى ، وراح يرسل صوتا من أنفه ، وهو يسير مهتزا فى صمت . فأخذ سانين يسائل نفسه : « كيف استطاع هذا الرجل الغبى ، أن يعثر على زوجة فى مثل هذه الفتنة وهذا الثراء .. انه لم يكن بالرجل الغنى ، ولا هو ينتمى الى الطبقة النبيلة العليا ، وليس على شىء من ذكاء .. لقد كان يعد فى المدرسة تلميذا أبله ، خاملا ، شرها لا أكثر ! .. ولكن ، ما دامت زوجته غنية ، أفلا يمكن أن تشترى أرضى ؟ لقد قال بوزلوف انه لا يتدخل فى شئون زوجته ، ولكننى لا أصدق هذا الزعم . سوف أطلب لأرضى ثمنا يغريها .. فلأحاول ، ربما كان حسن الطالع هو الذى أرسله الى .. نعم ، لقد قررت هذا ، وسوف افاتحه فى الأمر ! »

وقاد بوزلوف صاحبه الى فندق من أكبر فنادق فرنكفورت ، وكان يحتل فيه جناحا فاخرا . ولما لمح سانين فوق أثاث الغرفة بعض العلب والصناديق ، قال صديقه مشيرا اليها :

ـ هذه مشترياتى لماريا نيقولايفنا !

ثم تهالك على أحد المقاعد . واستطرد ، وهو يحل ربطة عنقه :

ـ ما أشد الحر اليوم !

ودق الجرس للخادم ، وأمره بقائمة منوعة حافلة بأفخر الطعام ، ثم قال له :

– ويجب أن تكون العربة مهيأة فى الساعة الواحدة ، فى الساعة الواحدة ، هل فهمت ؟

فانحنى الخادم انحناءة كبيرة ، امعانا منه فى التحية والاحترام ، ثم انصرف . وفك بوزلوف أزرار صديريته .. وكان حسب المرء أن يرى كيف يرفع حاجبيه ، ويتنفس فى عناء وهو يفتح منخريه ، حتى يدرك أن الكلام كان يقتضيه مجهودا شاقا . وراح يتساءل ، فى قلق باد ، ما اذا كان رفيقه سيحمله على تحريك لسانه ، أم أنه سيعفيه من هذه المهمة ، ويتولى هو الكلام وحده .. وأدرك سانين ذلك، فلم يحاول ازعاج صديقه القديم بالأسئلة ، وانما اكتفى منها بما كان لا بد له من معرفته . فلم يلبث أن علم منه أنه قد دخل الجيش، وظل فيه سنتين، منخرطا فى سلاح الفرسان، وأنه تزوج قبل أربع سنوات ، وانه يطوف فى الخارج مع زوجته منذ سنتين ، وأن زوجته تستشفى الآن بمياه فسبادن ، توطئة لسفرها من هناك الى باريس !

وكان سانين شديد التكتم ، فلم يحدث صديقه عن ماضيه ولا عن خططه ومشاريعه ، بل انتقل رأسا الى الموضوع الذى كان يعنيه بوجه خاص ، وهو رغبته فى بيع أرضه . وكان بوزلوف يصغى اليه دون أن ينبس بكلمة ، بينما أخذ يتطلع الى الباب الذى سيدخل منه الطعام . وسرعان ما وصل الطعام أخيرا ، يتقدمه رئيس الخدم ، ويحمله خادمان فى

أطباق عديدة فوقها أغطية ثقيلة من الفضة . وقال بوزلوف وهو يجلس الى المـائدة ، ويدس طرف المنشـفة فى ياقة قميصه :

ـ ان أرضك تقع فى ولاية تولا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، فى ولاية تولا .

ـ بمنطقة افرسوف .. اننى أعرف ذلك !

ـ أأنت تعرف أرضى الكائنة فى الكسيئيفكا ؟

ـ أظن أننى أعرفها .

وحمل بوزلوف الى فمه قطعة كبيرة من العجة ، ثم قال :

ـ ان لزوجتى أراضى قريبة منها .

ثم نادى الخادم ، وطلب اليـه أن يفتح زجاجة الخمر . وأردف :

ـ ان هذه الاراضى خصـبة : لـكن فلاحيك قد قطعوا أشجار غابتك .. وبالمناسبة ، لماذا تريد أن تبيع أملاكك ؟

ـ لأننى فى حاجة الى المال .. أجل .. وسأبيع بثمن غير باهظ .. ان شراءك أرضى صفقة رابحة لك !

وأفرغ بوزلوف فى جوفه كأسا من الخمر دفقة واحدة ، ثم جفف فمه بمنشفته ، وراح يمضغ الطعام ببطء ، ويلوكه بصوت مسموع . ثم قال :

ـ لا .. أنا لا أشترى أملاكا ، فليس عندى مال أشترى به .. ناولنى الزبد من فضلك .. ولكن زوجتى قد تشترى ارضـك .. حدثها فى الموضوع ، وما أحسب أنها ستحجم

عن الشراء اذا أنت طلبت ثمنا معقولا .. يا لهؤلاء الألمان من خمير ! .. انهم لا يجيدون طهى السمك ، مع أنه من أيسر الأمور وأبسطها ، ثم يتحدثون بعد ذلك عن وحدة الوطن !

ثم نادى الخادم مرة أخرى ، قائلا :

– ارفع هذا الطعام الذى لا يؤكل !

– هل صحيح أن زوجتك تدير أملاكها وحدها ؟

– نعم ، وحدها .. ان شرائح اللحم المشوى لذيذة .. أنصحك بأن تتذوقها .. قلت لك أننى لا أتدخل فى شئون امرأتى .. أجل .. أنا لا أتدخل فى شئونها قط !

ومضى بوزلوف يمصمص بشفاهه ، وهو يمضغ الطعام . فسأله سانين :

– ولكن ماذا يجب على أن أفعل لأحدثها فى الأمر بنفسى ؟

– الأمر بسيط . . اذهب الى زيارتها بفسبادن، وفسبادن ليست بعيدة عن فرنكفورت !

ثم نادى الخادم :

– هات لى خردلا انجليزيا .. أليس عندكم خردل انجليزى ؟ يا لكم من بهائم !

وعاد يخاطب سانين :

– ولكن يجب ألا تضيع الوقت ، فنحن مسافران بعد غد .. هل لك فى قليل من الخمر ؟ ان خمرهم لا بأس بها !

واحمر وجه بوزلوف . ولم يكن ينتعش الا حين يأكل ويشرب . وقال سانين :

– الحق أننى لا أعرف ماذا أفعل ..

– ولكن هل أنت متعجل لبيع أرضك ؟
– جدا !
– وهل أنت فى حاجة ماسة الى مبلغ كبير ؟
– أجل .. اصغ الى .. اننى أفضل أن أذكر لك كل شىء .. أننى بصدد الزواج !

فما أن سمع بوزلوف هذا التصريح، حتى أعاد الى المائدة القدح الذى كان قد حمله الى شفتيه . وسأل صديقه مشدوها :

– بصدد الزواج ؟ هكذا ؟ .. فجأة ؟

وراح يضم يديه الممتلئتين الى بطنه. بينما أجابه سانين :

– نعم .
– وخطيبتك .. هى الآن فى روسيا طبعا ؟
– كلا .
– أين هى اذن ؟
– هنا فى فرنكفورت !
– وما جنسيتها ؟
– انها ألمانية .. أقصد .. كلا .. انها ايطالية مولودة بفرنكفورت !
– أغنية هى ؟
– كلا .
– هو اذن غرام جامح !
– أنت مضحك .. أجل ، اننى أحبها حبا جما .
– ومن أجل هذا ، تريد المال ؟
– نعم ، نعم ، نعم !

وأفرغ بوزلوف كأسه ، ثم تمضمض ، وغسل يديه ، وجففهما بالمنشفة ، وما لبث أن أخرج من جيبه سيجارا ، فأشعله . وكان سانين ينظر اليه دون أن يقول شيئا . وأخيرا قال بوزلوف ، وهو يدفع رأسه الى وراء ، وينفث الدخان فى حلقات دقيقة :

ـ لا أرى الا وسيلة واحدة ، هى أن تذهب الى زوجتى ، فاذا شاءت ، أخرجتك من المأزق الذى أنت فيه .

ـ ولكن كيف أستطيع أن أقابل زوجتك ، وأنت تقول انكما مسافران بعد غد ؟

وأغمض بوزلوف عينيه . ثم قال أخيرا ، وهو يدير السيجار بين شفتيه ، ويتنهد :

ـ اسمع . . اذهب الآن الى فندقك ، فهيىء أمتعة السفر بسرعة ، ثم عد الى هنا . . اننى سأسافر فى الساعة الواحدة ، وعربتى متسعة ، فيمكن أن تأتى معى . وهذا خير ما يمكن عمله . . والآن ، أنا فى حاجة الى قيلولة قصيرة ، اذ اننى متى أكلت ، شعرت برغبة فى أن أنام قليلا . . ان مزاجى يفرض على ذلك ، وأنا أخضع له دائما ، فلا تحل اذن بينى وبين النوم !

وأخذ سانين يفكر ، ثم رفع رأسه فجأة ، وقد بدا أنه اعتزم امرا . وقال لبوزلوف :

ـ حسنا . . شكرا لك . . سأعود اليك فى الساعة الثانية عشرة والنصف ، وسنسافر معا الى فسبادن ، وآمل الا تستاء زوجتك من قدومي !

وما أن فرغ سانين من كلامه ، حتى كان بوزلوف قد استغرق فى نوم عميق ، وراح يغط بصوت مرتفع . وكان ، منذ أن قال لصديقه : « لا تحل بينى وبين النوم » ، قد مد ساقيه ، ونام كالطفل .. وألقى سانين نظرة أخيرة على ذلك الوجه الضخم ، والرأس الذى بدا وكأنه لا رقبة تحته ، والذقن العالية المدورة التى تشبه التفاحة ، ثم هرول الى حانوت السيدة روزيلى ، لينبىء جيما بما استقر عزمه عليه !

- ٣٢ -

وجد سانين الفتاة مع أمها فى الحانوت . وكانت السيدة ليونور منحنية على الأرض ، وقد راحت تقيس المسافة بين النافذتين . فلما رأت سانين ، نهضت ، واستقبلته فرحة ، ولكن فى شىء من الخجل . وقالت :

ـ أصبحت ـ منذ حديثنا أمس ـ لا أفكر الا فى الاصلاحات التى يمكن أن ندخلها على الحانوت .. اننى هنا أريد رفوفا من مرايا حقيقية ، فهذه هى «الموضة» الآن .. وهنا ..

فقال سانين مقاطعا :

ـ حسنا ، حسنا ، سنفكر فى هذا كله فيما بعد .. أما الآن فتعالى معى . أريد أن أفضى اليك بنبأ !

وأمسك بذراع السيدة ليونور ، فمضى بها الى الغرفة المجاورة . وقد اضطربت المرأة ، فسقط من يدها المتر الذى كانت تحمله . وانزعجت جيما قليلا ، فرفعت بصرها الى

سانين ، لكنها ما لبثت ان اطمأنت . فقد كان وجه الشاب ينبىء عن انشغال البال ، ولكنه كان يعبر فى الوقت نفسه عن شجاعة لا تتزعزع ، وعن عزم لا يلين .. وطلب الى المرأتين أن تجلسا ، وظل هو واقفا أمامهما ، يشير بيديه ، وقد انتكش شعره . وراح يقص عليهما لقاءه المفاجىء ببوزلوف ، وسفره المقترح الى فسبادن ، وأمله فى أن يبيع أرضه . وهتف مخاطبا جيما :

- هل تدركين السعادة التى أنا فيها ؟ اذا نجحت المساعى التى أقوم بها ، فلن أضطر الى السفر الى روسيا . وسيكون فى وسعنا أن نتزوج قبل الموعد الذى كنت أقدره لزواجنا .

فسألته جيما :

- ومتى تسافر ؟

- بعد ساعة . سأصحب صديقى فى عربته !

- ستكتب الينا ، أليس كذلك ؟

- ساعة وصولى .. ومتى تحدثت مع هذه السيدة فى الأمر ، بعثت أطلعك على ما وصلت اليه من نتائج ..

وهنا سألته السيدة ليونور :

- تقول أن هذه السيدة غنية جدا ، أليس كذلك ؟

- بل هى ذات ثراء فاحش .. كان أبوها يملك عدة ملايين ، وقد أوصى لها بكل ثروته قبل ان يموت !

- لها وحدها ؟ هذا من حسن حظك .. ولكن حاول الا تبيع أرضك بثمن بخس .. كن حكيما ولا تفرط .. كن هادئا ولا تتحمس ! .. أنا أدرك رغبتك فى الزواج بأقصى

سرعة . ولكن لا تنس أن ما سيبقى لكما ولأولادكما من المال سيكون على قدر المبلغ الذى تستطيع أن تنتزعه ثمنا لأرضك!

وحولت جيما رأسها . فاستأنف سانين كلامه وحركاته واشاراته :

- اعتمدى على حكمتى يا سيدة ليونور .. لن أسمح بالمساومة . سأحدد لهذه السيدة سعرا معقولا ، فان وافقت عليه كان بها ، والا فلا !

وقالت جيما :

- وهل سبق أن رأيت هذه السيدة ؟

- أبدا .

- ومتى تعود ؟

- اذا لم تنجح الصفقة ، عدت غدا . أما اذا رأيت أن من الممكن أن أخرج بشىء ، بقيت يوما آخر أو يومين . . وعلى كل حال ، لن تطول اقامتى هناك دقيقة واحدة فوق الحاجة .. اننى أترك روحى هنا . . ولكن يجب أن أذهب الى غرفتى قبل السفر . . يا سيدة ليونور ، ناولينى يدك ، أتيمن بها .. هذه عادة فى روسيا !

- اليمنى أم اليسرى ؟

- بل اليسرى ، لأنها الى القلب أقرب . وسأعود غدا منتصرا أو منكسرا . الا اننى أحس بأننى سأعود منتصرا . الى اللقاء يا عزيزتى ؛ الى اللقاء يا صديقتى !

وقبل السيدة ليونور ، ثم سأل جيما أن تسمح له بالدخول الى غرفتها لحظة ، ليسر اليها بأمر هام . والواقع أنه كان

يريد الاختلاء بها قبل أن يرحل . وقد أدركت السيدة ليونور مقصده ، فلم تسأله عن ذلك الأمر الهام الذى كان يبغى الافضاء به الى ابنتها .. ودخل سانين لأول مرة غرفة الفتاة . فما أن اجتاز تلك العتبة المقدسة ، حتى استعر فى نفسه كل ما يثيره الحب من فتنة ، وسحر ، وحرارة ، ونشوة ، وكل ما فيه من خوف عذب أيضا . وألقى على ما حوله نظرة رقيقة ، ثم ركع أمام الفتاة ، وشد وجهه الى ثوبها . فقالت جيما :

ـ هل أنت لى ؟ هل ستعود قريبا ؟

فأجابها سانين بصوت مختنق :

ـ أنا لك .. وسأعود قريبا !

ـ سأنتظرك !

وبعد بضع دقائق ، كان سانين فى الشارع يعدو نحو الفندق . ولم يلحظ أن بانتاليون قد خرج من الحانوت فى أثره ، وهو أشعث الرأس ، وقد راح يلوح له بيده المرفوعة وكأنه يهدده ، ويتمتم بكلام لم يبلغ مسامع سانين .

وفى الساعة الواحدة الا ربعا ـ على وجه التحديد ـ دخل سانين على بوزلوف . وكانت أمام الفندق تقف عربة أنيقة ، تجرها أربعة جياد . فلما رأى بوزلوف صاحبه سانين ، ابتدره قائلا : « آه . اذن لقد قررت ! » ، ثم ارتدى معطفه ، ودس قدميه فى حذاءين من المطاط فوق الخفين ، وسد أذنيه بقطعتين من القطن ، رغم أن الوقت كان صيفا ، ثم بارح الغرفة . وكان الخدم قد نقلوا الطرود الكثيرة الى

العربة حسب أوامره ، وحشوا مكانه بوسائد من الحرير ، وصفوا حولها أكياسا صغيرة ، ووضعوا عند مكان القدمين سلة مليئة بالمؤونة ، وحزموا الحقيبة الكبيرة الى جانب الحوذى . وبعد أن منح بوزلوف جميع الخدم «بقشيشا» ، صعد الى العربة وهو يئن ،وقد استند الى ذراعى البواب الذى تقدم ليعاونه فى احترام وتعظيم بالغين ، ثم أخذ مكانه بعد ان جس الطرود من حوله هنا وهناك ، وأخرج من جيبه سيجارا فأشعله ، وبعد ذلك كله أشار الى سانين بحركة من أصبعه لكى يصعد الى العربة ، ففعل سانين ، وجلس الى جانبه . وطلب بوزلوف من البواب أن ينصح الحوذى بالتزام اليقظة والانتباه ، اذا كان حريصا على الحصول على « البقشيش » . وسرعان ما قرقع سوط الحوذى ، فصفقت الأبواب وهى تغلق ، وانطلقت العربة فى المسير !

- ٣٣ -

يقطع القطار ـ فى أيامنا هذه ـ المسافة بين فرنكفورت وفسبادن فى أقل من ساعة . أما فى ذلك العهد ، فكانت العربات تستغرق ثلاث ساعات لقطع هذه المسافة ، فضلا عن انها كانت تستبدل أثناء ذلك خمس مرات !

لم يتكلم بوزلوف الا قليلا أثناء الطريق، وكان يبدو كالنائم، وهو يهتز ، ويقلب سيجاره بين شفتيه . ولم ينظر من النافذة مرة واحدة ، اذ لم تكن المناظر الطبيعية لتثير شغفه أو اهتمامه . حتى لقد صرح قائلا : « الطبيعة هى الموت فى

نظرى ! » . وكان سانين راكنا الى الصمت هو الآخر ، ولم يعبأ بمناظر الطبيعة ، اذ كان مستغرقا استغراقا تاما فى أفكاره وذكرياته .. وكان بوزلوف ، فى كل محطة ، يدفع المال بلا مساومة ، وينظر الى الساعة المعلقة فى معصمه ، ويوزع « البقشيش » على الحوذية ، كل على قدر حماسته وهمته !

وأثناء الطريق ، أخرج من السلة برتقالتين ، فاختار أفضلهما لنفسه ، ثم دفع بالأخرى الى سانين . وفيما كان بوزلوف يقشر برتقالته بأظافره القصيرة البيضاء ، أطلق سانين فجأة ضحكة عالية ، وهو ينظر الى رفيقه . فسأله هذا مشدوها :

ـ ما الذى يضحكك ؟

ـ رحلتنا هذه ..

ـ لماذا ؟

وراح بوزلوف يلتهم ربع البرتقالة دفعة واحدة . على حين أردف سانين :

ـ عجيبة رحلتنا هذه ! .. بالأمس لم يكن تصورى بأن ألقاك ليفوق توقعى مقابلة امبراطور الصين .. ثم ها أنذا اليوم مسافر معك ، لأبيع أرضى لزوجتك التى لم أرها فى حياتى قط !

فقال بوزلوف :

ـ ان كل شىء ممكن الحدوث . وكلما تقدمت فى السن ، رأيت ما هو أعجب .. أنظر مثلا : هل تتصور صديقك

بوزلوف على صهوة جواد ، ملحقا بخدمة أحد أصحاب السعادة ؟ طبعا لا .. ومع ذلك فقد حدث هذا ! .. وحين رآني الدوق ميخائيل بافلوفتش ، صاح في : « أسرع ، أسرع .. الكز هذا البغل ! »

وحك سانين أذنه ، وقال :

ـ قل لى ، يا هيبوليت سيدورتش ، كيف هي امرأتك ؟ حدثني عن طباعها ، اذ يجب أن أعرف شيئا عن الشخص الذى سأتعامل معه !

فاستطرد بوزلوف فى لهجة تقطر حقدا :

ـ كان فى وسع الدوق أن يأمرنى : « أسرع .. أسرع ! » ، ولكننى استطعت أنا أيضا أن أنزل عن الحصان ، ثم أقول لهم : « هاكم الرتب .. وهاكم النياشين .. اننى أريدها ! » .. آه .. تريدنى أن أحدثك عن زوجتى ؟ حسنا .. **ان امرأتى انسان كسائر بنى البشر ، ولكن لا «تحاول أن تدس أصبعك فى فمها » ، انها لا تحب هذا ! .. وقبل كل شىء يجب أن تضحكها ..** قص عليها حكايات غرامية ، على شرط أن تكون حكايات مضحكة ، هل فهمت ؟

ـ مضحكة ؟ كيف ؟

ـ طبعا .. لقد قلت لى انك تحب ، وانك تريد أن تتزوج .. حسنا .. قص عليها مغامرتك !

وأحس سانين باستياء . لكنه قال :

ـ ما ألذى يضحك فى زواجى ؟

فاكتفي بوزلوف بأن نظر الى سانين، وكان عصير البرتقال

يسيل على ذقنه . وعاد سانين يسأل صديقه بعد لحظة صمت :

ــ هل زوجتك هى التى طلبت منك أن تأتي الى فرنكفورت لشراء هذه الأشياء ؟

ــ نعم .

ــ وما الذى اشتريته ؟

ــ بعض اللعب .

ــ لعب ؟ .. هل لك أطفال ؟

وما أن سمع بوزلوف سؤال سانين ، حتى ابتعد عنه ، وقال :

ــ ما هذا الذى تقوله ؟ أطفال ؟ ولم الأطفال ؟ ان اللعب التى اشتريتها هى أشياء للزينة .. انها أدوات زينة !

ــ أأنت تجيد شراء مثل هذه الأشياء ؟

ــ طبعا !

ــ لكنك قلت لى أنك لا تتدخل فى شئون زوجتك ؟

ــ فى هذه الشئون أتدخل .. أقصد شئون الزينة .. ان هذا يسليني ، وزوجتى تعتمد على ذوقى .. ثم اننى أحسن المساومة !

وصار بوزلوف يلفظ عباراته متقطعة ، وكان واضحا أن التعب قد نال منه كل منال . غير ان سانين راح يلاحقه بأسئلته :

ــ هل زوجتك غنية جدا ؟

ـ من ناحية الغنى ، هى غنية .. ولكنها تحتفظ بالثروة كلها لنفسها !

ـ يخيل الى مع ذلك أنه ليس لك أن تشكو أو أن تتبرم .. فأنت تعيش فى بحبوحة !

ـ ألست زوجها ؟ ! .. آه..ان هذا ما كان ينقصنى .. أن أعيش فى ضيق ! .. لاحظ أننى أقدم لها خدمات كثيرة ، فهى تستفيد منى .. ثم اننى لا أضايقها فى شىء ، فأنا زوج مريح !

ثم طفق يجفف وجهه بمنديل ، ويتنهد بصعوبة ، وكأنه يقول لمحدثه : « ارحمنى..ارحمنى .. لا تحملنى على المزيد من الكلام .. الا ترى أن الكلام يرهقنى ؟ ! » .. فتركه سانين وشأنه ، واستغرق فى تأملاته من جديد !

***

وكان الفندق الذى وقفت أمامه العربة فى (فسبادن) أقرب الى القصر منه الى الفندق. وسرعان ما دقت الأجراس فى الممرات ، وقام فى الفندق هرج ومرج . وأقبل خدم يرتدون اللباس الرسمى ، ثم جاء بواب طرزت ثيابه بخيوط ذهبية ، ففتح باب العربة . وترجل بوزلوف فى خيلاء ، وأخذ يصعد السلم المعطر المفروش بالسجاد . وهرع الى استقباله رجل يلبس رداء رسميا أسود ، ويبدو من هيئته أنه روسى . لقد كان تابع السيد بوزلوف الخاص . وأبلغه هذا بأنه سيصطحبه بعد الآن حيثما يذهب، لأنهم قد تركوه

بالأمس ، طوال الليل ، فى فرنكفورت ، بدون قطرة واحدة من الماء الساخن . فعلت وجه التابع امارات الدهشة والرعب ، ثم أسرع ينحنى ، فخلع عن خفى سيده حذاءى المطاط . وسأله بوزلوف :

ـ هل ماريا نيقولايفنا فى حجرتها ؟

ـ صاحبة السمو فى حجرتها .. صاحبة السمو ترتدى ملابسها .. انها ستتناول طعام الفداء على مائدة الكونتيسة لاسونسكى .

ـ آه ، على مائدة الكونتيسة .. اسمع ، لقد تركت فى العربة ملابس .. فاذهب ، واحمل الى هذه الملابس بنفسك .. أما أنت ، يا ديمترى بافلوفتش ، فاحجز غرفة لنفسك ، ثم تعال الى ، هنا ، بعد ثلاثة أرباع الساعة ، وسنتناول الفداء معا .

ثم انصرف ، على حين مضى سانين ، فطلب أن تحجز له غرفة بسيطة متواضعة . حتى اذا انتهى من ارتداء ملابسه فى غرفته ، ونال قسطا من الراحة ، دخل الجناح الواسع الذى يحتله « صاحب السمو الأمير بوزلوف » ، فوجد « سموه » جالسا على أريكة من المخمل اللامع ، وسط صالون أنيق باهر . وكان صديق سانين قد استحم فى تلك الاثناء ، ثم خرج من الحمام ، فارتدى ثوبا من ثياب المنزل ، صنع من الحرير الفاخر ، ووضع على رأسه طربوشا أحمر زاهيا ارجوانى اللون . واقترب منه سانين ، وأخذ يحدق فيه . لكن بوزلوف ظل جالسا لا يأتى حراكا ، وكأنه صنم

فى محراب . ولم يلتفت نحو سانين ، ولا هز حاجبيه ، أو نطق بحرف . وكان منظرا بالغ الروعة ، راح سانين يتأمله فى كثير من الاعجاب !

وفيما كان سانين يهم بأن يقطع ذلك الصمت المهيب ، اذا بباب الغرفة المجاورة ينفتح ، **فتطل منه امرأة شابة جميلة ، ترتدى ثوبا من الحرير الأبيض ، مزينا بشرائط سوداء ، وفى معصميها وجيدها تلتمع أحجار ماسية ثمينة . كانت « ماريا نيقولايفنا بوزلوف »** . وكان شعرها الأحمر الكثيف يتدلى على كتفيها فى جدائل ، أخذت تمشطها تمهيدا لرفعها الى أعلى !

- ٣٤ -

ـ آه .. معذرة !

هكذا صاحت « ماريا نيقولايفنا » ، وهى تبتسم ابتسامة امتزج فيها الخجل بالسخرية . ثم رفعت بيدها احدى جدائلها ، ونظرت الى سانين بعينيها الواسعتين الصافيتين ، وقالت تخاطب زوجها :

ـ لم أكن أعلم أنك عدت .

فأجابها بوزلوف ، وهو يشير الى سانين بأصبعه ، دون أن يتحرك من مكانه :

ـ هذا سانين بافلوفتش ، من أصدقاء الطفولة !

ـ أعرف ذلك ، لقد سبق أن حدثتنى عنه .. أنا سعيدة بمعرفتك .. ولكننى جئت أطلب اليك خدمة يسيرة

يا هيبوليت سيدوروفتش ، فان وصيفتى اليوم لا يعتمد عليها .

– تريدين أن أصفف لك شعرك ؟

– نعم ، أرجوك ، ومعذرة !

وعادت ماريا نيقولايفنا تبتسم ابتسامتها الأولى . وما لبثت أن حيت سانين بحركة من رأسها ، ثم استدارت ، وانصرفت . وكان اختفاؤها – مثل ظهورها – سريعا خطفا . وكنت ذات جسم رشيق ، وجيد فاتن ، ونحر مشرق مضىء .. ونهض بوزلوف ، فتبع امرأته بخطوات متثاقلة الى الغرفة المجاورة . ولم يساور سانين ادنى شك فى أن المرأة الشابة كانت تعرف أنه كان فى صالون بوزلوف ، كما لم يرتب لحظة واحدة فى أنها لفقت هذه التمثيلية عامدة ، لتكشف له عن شعرها الجميل ، الذى كان – الواقع – جديرا بالمشاهدة والاعجاب . وقد اغتبط سانين لذلك ، قائلا لنفسه : « من يدرى .. لقد أرادت أن تبهرنى بجمالها ، فعسى أن تتساهل معى ، فتشترى الأرض ! » .. وكانت نفسه مشبعة بحب جيما ، حتى أن جميع النساء ما كن ليستحوذن على اهتمامه قط . وقد اكتفى – هذه المرة – بأن قال لنفسه : « نعم ، لقد صدقوا حين قالوا ان امرأته رائعة الجمال ! » .

ومما لا شك فيه أنه لو كان سانين فى ظروف أخرى غير تلك الظروف ، لما اكتفى بمجرد هذه العبارة تعبيرا عن أحاسيسه ومشاعره . فقد كانت ماريا نيقولايفنا (وكان اسمها قبل الزواج « كولشكين ») امرأة لا يستطيع المرء

الا أن يلتفت اليها . ولم يكن جمالها بالجمال الخارق ، بل أن قسماتها كانت تكشف فورا عن أصلها الوضيع..وكانت ضيقة الجبهة ، ذات أنف كبير مفرطح ، وبشرة لا تتميز بأية رقة أو نعومة ، ويدين وقدمين تجردت من الرشاقة .. **وصحيح أن من كان يراها ، لم يكن يقف أمامها مأخوذا « بجمال مقدس » ، على حد تعبير « بوشكين » . ولكنه كان يقف على كل حال ، وقد بهرته فتنة جسم نضر ، ممشوق ، قوى ، جسم امرأة روسية أو غجرية !** .. كان من يراها لا يسعه الا أن يقف أمامها حتما..غير أن صورة جيما كانت تحمى سانين ، وكأنها « الدرع المثلثة » التى تغنى بها الشاعر !

وعادت ماريا نيقولايفنا بعد عشر دقائق، يصحبها زوجها . واقتربت من سانين .. وكانت مشيتها تثير الفتنة والاغراء ، حتى لقد قال أحد المعجبين فى وصفها : «حين تقبل عليك هذه المرأة، تشعر كأن السعادة كلها مقبلة عليك!»..ومدت يدها الى سانين ، وقالت تخاطبه بصوت لطيف رقيق :

ـ أرجو ألا تذهب قبل عودتى..ولن أتأخر على كل حال !

فانحنى سانين فى احترام ، واتجهت ماريا نيقولايفنا نحو الباب، فلما صارت عند العتبة ، التفتت برأسها الى الوراء ، وابتسمت، ثم خرجت، مخلفة فى نفس سانين ذلك الاحساس عينه الذى أحس به أول مرة !

وحين كانت ماريا نيقولايفنا تبتسم ، لم تكن ترتسم على كل خد من خديها غمازة واحدة ، بل ثلاث غمازات ..

فتضحك عيناها وشفتاها الطويلتان، القرمزيتان، الملتمعتان ، اللتان كانت تجاورهما من الجهة اليسرى شامتان صغيرتان .

وجر بوزلوف نفسه جرا الى الأريكة . دون ان يقول شيئا ، الا أن ابتسامة ساخرة غامضة كانت تعلو وجنتيه الممتلئتين ، الباهتتين ، المغمضتين ، من حين الى آخر .. وكان يبدو وكأنه رجل عجوز . مع أن عمره لم يكن يجاوز عمر سانين الا بثلاثة أعوام ..

وجلس الرجلان الى المائدة . وكان الطعام الذى قدمه بوزلوف الى سانين خليقا بأن يرضى أرهف الناس ذوقا ، وأرقهم احساسا . لكن سانين وجد العشاء طويلا مملا ، حتى بدا وكأنه لن ينتهى . وكان بوزلوف يتناول طعامه ببطء . وكان يلتهمه بشغف ، واقتناع ، واهتمام ، فكان يميل برأسه الى الطبق حتى ليكاد يغمسه فيه . ولم يكن يفته أن يشم كل لقمة قبل أن يزدردها . وكان يتمضمض بالخمر أولا ، ثم لا يلبث أن يبتلعها ممصمصا مقرقعا . وحين جاء دور اللحم المقلى ، انحلت عقدة لسانه فجأة . فراح يتحدث عن الخراف التى كان يريد أن يجىء الى مزرعته بقطيع كامل منها ، فكان يفيض فى الحديث عنها ، موردا التفاصيل ، تلو التفاصيل ، ولم يكن يستعمل فى عباراته الا صيغ التصغير ، امعانا فى اظهار حبه وشدة تعلقه بتلك الخراف !

وبعد أن تناول فنجانا من القهوة الساخنة الى درجة الغليان (وقد لفت نظر الخادم — عدة مرات ، أثناء الطعام —

الى أن القهوة سبق أن قدمت اليه باردة كالثلج) ، قضم بأسنانه الصفراء المعقوفة، سيجارا من نوع (هافانا) الفاخرة ، ثم ما لبث أن نام ، على عاداته ، فاغتبط سانين لذلك ايما اغتباط !

وأخذ الشاب يذرع الصالون جيئة وذهابا ، دافعا السجادة السميكة بقدميه ، وهو يفكر فى حياته المقبلة مع جيما ، وفى الانباء التى يمكن أن يحملها اليه الغد .. لكن بوزلوف استيقظ من نومه قبل الموعد الذى اعتاد أن يستيقظ فيه ، اذ لم يخلد الى النوم الا لمدة ساعة ونصف ساعة . فلما صحا ، شرب كوبا من الماء المثلج ، ثم التهم ثمانى ملاعق من مربى الفاكهة الروسية الفاخرة ، التى قدمها له تابعه فى اناء أخضر قاتم . وقال لصديقه انه بدون المربى لا يستطيع أن يعيش ، ثم رفع نحوه عينيه المحتقنتين بعض الشىء ، وسأله عما اذا كان مستعدا لأن يلاعبه الورق . وقبل سانين ، لأنه خشي أن يستأنف بوزلوف حديثه عن الخراف ، وأن يخوض فى تفصيلات ثقيلة لا أول لها ولا آخر .. وجاء الخادم بالورق ، وبدأ اللعب . وكان طبيعيا أنهما ما كانا ليلعبان ليربح أحدهما من الآخر ، وانما لمجرد تمضية بعض الوقت . فلما عادت ماريا نيقولايفنا من حفلة عشائها لدى « الكونتيسة لاسوفسكى » ، الفت الرجلين عاكفين على تسليتهما البريئة . وما لبثت أن انفجرت ضاحكة حين رأت الورق على منضدة اللعب ، فهب سانين واقفا ، الا أنها قالت له :

ـ بل أكملا لعبكما ، فانني ذاهبة لأغير ثيابى ، ثم أعود .

ومضت بين حفيف ثيابها ، وهى تخلع قفازيها أثناء سيرها . فلما عادت ، بعد أن استبدلت بثوب السهرة غلالة هفهافة مفتوحة الاكمام ، صنعت من الحرير البنفسجى ، وقد لفت حول خصرها حبل مجدول ، جلست الى جانب زوجها ، وجعلت تنتظر نهاية اللعب ، لكنها سرعان ما ملت الانتظار ، فخاطبت زوجها قائلة :

ـ يكفى هذا الآن يا « فطيرتى » الحبيبة !

فدهش سانين لمخاطبتها زوجها على هذا النحو ، لكنها ابتسمت له بابتسامة مرحة . وأردفت تقول لبوزلوف :

ـ **انك لتكاد تسقط من شدة النعاس . هاك يدى فقبلها ، وامض الى سريرك ، وسأبقى أنا مع السيد سانين لنتحدث قليلا !**

وقال بوزلوف ، وهو ينهض عن أريكته متثاقلا :

ـ ليس بى نعاس ، ولكننى سأمضى مع ذلك لاستلقى على السرير !

فمدت له يدها ، دون أن تكف عن الابتسام وهى تنظر الى سانين . ونظر بوزلوف أيضا الى صديقه ، ومضى دون استئذان . ولما انصرف ، قالت ماريا نيقولايفنا ، فى حرارة ، وهى تضع مرفقيها العاريين على المنضدة ، وتضرب أظافرها واحدا بالآخر علامة على نفاد صبرها :

ـ **والآن حدثنى عن قصتك . لقد قيل لى انك موشك على الزواج ، فهل هذا صحيح ؟**

وما أن طرحت ماريا نيقولايفنا هذا السؤال ، حتى مالت برأسـها قليلا كأنما لتنظر فى عينى الشاب نظرة أكثر نفاذا وأشد تعمقا !

- ٣٥ -

كان من الممكن أن يضطرب سانين لتبسط زوجة بوزلوف معه وملاطفتها له ـ رغم أنه لم يكن غريرا ، ورغم ما كان له من تجارب سـابقة مع النسـاء ـ لولا أنه رأى فى تلك الألفة التى أظهرتها المرأة نحوه ، وفى عـدم تحرجها معه ، بشير خير فى أمر مشروعه . فقال لنفسـه : « لا بأس فى مداعبـة نزوات هذه السيدة الفنية » . ثم أجاب عن سؤالها بقوله :

ـ نعم ، اننى على أبواب الزواج !

ـ وهل خطيبتك اجنبية ؟

ـ انها ايطالية !

ـ وهل تعرفت اليها فى فرنكفورت ؟

ـ نعم ، يا سيدتى ، فى فرنكفورت .

ـ وهل يمكن أن أعرف من هى هذه الفتاة ؟

ـ طبعا .. هى بنت صاحب متجر للحلوى !

فلما سمعت ماريا نيقولايفنا رد سانين، حملقت فى وجهه ، وقد رفعت حاجبيها لفرط ما تولاها من دهشة . ثم قالت بصوت متراخ :

ـ شىء جميل .. شىء رائع .. لقد كنت أحسب أن العالم لم يعد فيه رجال مثلك .. بنت صاحب متجر للحلوى !

فقال سانين بشيء من الاعتداد :

- أيدهشك هذا ؟ .. أولا ، أنا رجل لا أبالى بهذه الاعتبارات !

- أولا ، هذا لا يدهشنى أبدا .. أنا أيضا لا أبالى بهذه الاعتبارات .. اننى ابنة فلاح ! !

هكذا هتفت السيدة بوزلوف تقاطع سانين . ثم أردفت :

- لا ، لا ، أنك لا تدهشنى ، بل تسرنى .. وأنت أخيرا رجل لا يخشى الحب .. هل تحبها ؟

- نعم ، يا سيدتى .

- أهى جميلة جدا ؟

وأحس سانين بالاستياء لسماعه هذا السؤال ، لكنه لم يجد مفرا من الاجابة ، فقال :

- كل رجل يرى فى وجه المرأة التى يحبها أجمل وجوه سائر النساء .. ولكن خطيبتى جميلة حقا !

- حقا ؟ من أى نموذج هى؟ النموذج الايطالى الكلاسيكى ؟

- نعم ، وقسماتها منسجمة كل الانسجام !

- هل تحمل صورة لها ؟

- كلا .

- وما اسمها ؟

- جيما .

- واسمك أنت ؟

- ديمترى .

- فقط ؟

ــ بافلوفتش .

وقالت ماريا نيقولايفنا ، بذلك الصوت المتراخى نفسه :

ــ هل تعلم أنك تعجبنى ؟.. انك تعجبنى كثيرا يا ديمترى بافلوفتش ! .. لا شك فى أنك شاب شهم .. ناولنى يدك ، ولكن صديقين !

وصافحت يد الشاب فى قوة بأصابعها العنيفة البيضاء . وكانت يدها أصفر قليلا من يد سانين، وأكثر حرارة ورقة ، وأشد مرونة وحيوية . وسألته :

ــ هل تعرف ما الذى يراودنى الآن ؟

ــ كلا .

ــ ألا تغضب اذا صارحتك بالفكرة التى تراودنى ؟ .. لقد قلت لى منذ لحظة انك خاطب .. أما من سبيل الى ألا يكون الأمر كذلك ؟

فقطب سانين حاجبيه ، وقال :

ــ لست أفهمك يا سيدتى ..

فضحكت ماريا نيقولايفنا ضحكة قصيرة، ثم هزت رأسها ، فدفعت الى الوراء شعرها الذى كان يتدلى على خديها . وقالت وهى حالمة ذاهلة :

ــ انه لذيذ حقا .. وفارس شهم .. كيف يصدق المرء ، بعد أن يراه ، ما يقال من أن المثاليين لم يعد لهم وجود فى هذا الزمان !

وكانت ماريا نيقولايفنا تتكلم طوال الوقت باللغة الروسية ، فى صوت صافى النبرات كذلك الذى يتحدث به شعب

موسكو ، لا طبقة النبلاء . وقالت لمحدثها :

– لا شك أنك قد نشأت فى البيت ، بين أسرة من الطراز القديم الذى يخاف الله ؟

ثم أستطردت تسأله على الفور :

– من أية ولاية انت ؟

– من ولاية تولا .

– نحن اذن من « جرن » واحد . ان أبى .. هل تعرف من كان أبى ؟

– أجل .

– لقد ولد أبى فى تولا .. ولكن هذا يكفى الآن ، ولننتقل بحديثنا الى الاعمال !

– الى الاعمال ؟ ماذا تقصدين ؟

وطرفت عينا ماريا نيقولايفنا . وكانت نظرتها ، اذ تطرف عيناها ، تفيض رقة وودا يمتزج بهما شىء من السخرية . أما حين كانت تنظر محملقة ، فان بريق عينيها كان يستحيل الى نظرة جامدة ، لا تدل على شىء من الطيبة ، بل كان يبعث الخوف فى النفس . وكان حاجباها الكثيفان ، الطويلان ، المقوسان ، هما اللذان يضفيان على عينيها فتنة وجاذبية . وقالت لسانين :

– ما الذى جاء بك الى هنا اذن ؟ أنت انما جئت لتبيعنى أرضك ، لأنك فى حاجة الى مال ، أليس كذلك ؟

– نعم ، أنا فى حاجة الى مال .

– الى كثير من المال ؟

ـ احتاج الآن الى بضعة آلوف من الفرنكات .. ان هيبوليت سيدوروفتش يعرف أرضى ، وفى وسعك أن تستشيريه . ولست أطلب ثمنا باهظا !

وحركت ماريا نيقولايفنا رأسها يمينا ويسارا. ثم قالت ، وهى تضغط على كل كلمة من كلماتها ، وتضرب ظهر سانين بطرف أصابعها :

ـ أولا ، لم أتعود أن أستشير زوجى ، الا فيما يتصل بشئون زينتى ، فهو فى هذا المجال خبير .. ثانيا ، لماذا لا تطلب منى ثمنا باهظا ؟ اننى لا أريد أن أستغل الظرف الذى أنت فيه.. أنت الآن عاشق ، وقادر على جميع التضحيات ، وتريد أن تخفض الثمن كى تحصل على المال ، ولكن ، لا .. اننى لا أقبل أن أبخس سعر أرضك .. ماذا ؟ أأستغل حالتك بدلا من أن أشجعك ـ بكل ما أوتيت من قوة ـ على هذه العواطف النبيلة التى تحملها بين جوانحك ؟ ! لا ، لا ، ليس هذا من عادتى !

وتساءل سانين : « ترى أليست تمزح ؟.. آه .. معك ، يجب أن يكون المرء يقظا حذرا ! » .. وجاء خادم يحمل أقداح الشاى ، والزبد ، والفطائر على صينية كبيرة ، وضعها على المائدة بين سانين وماريا ، ثم خرج . وصبت المرأة الشابة قدحا من الشاى لسانين . ثم قالت له ، وهى تضع السكر فى قدحه بطرف أصابها ، رغم أن الملقط كان فى وعاء السكر :

ـ لا تؤاخذنى !

ـ سيدتي ، من يد لها مثل هذا الجمال ..

ولم يتم عبارته المبتذلة ، وأوشك أن يختنق وهو يبتلع الجرعة الأولى من الشاي . وكانت الأميرة ، أثناء ذلك ، تنظر اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين . واستطرد سانين يقول :

ـ انما قلت انني لن أطالب بثمن مرتفع ، لأنك الآن فى خارج البلاد ، وربما لم يكن ما تحت يدك من مال بالقدر الوفير .. ثم ان ظروف البيع هذه ليست بالظروف العادية ، وأنا أحسب حساب جميع هذه الامور !

وكان سانين يتردد فى كلامه ، ويتلعثم ، ويتلكأ ، بينما كانت ماريا نيقولايفنا قد ارتمت الى الوراء ، مستندة الى ظهر أريكتها ، وراحت ترنو اليه بتلك النظرة الصافية اليقظة . وسكت أخيرا . فقالت هى تشجعه :

ـ أستمر ، استمر .. تكلم !

فانطلق سانين ، عندئذ ، يصف أرضه ، فذكر مساحتها وموقعها ، وقال أن البيت فيها يطل على منظر جميل رائع .. وكانت ماريا نيقولايفا لا تحول عنه نظرتها الصافية ، وكانت شفتاها تختلجان اختلاجا خفيفا دون أن ترتسم عليهما إبتسامة ما ، وكانت المرأة بين الحين والحين تضغط عليهما بأسنانها ، وشعر سانين بشىء من الحرج ، فما لبث أن لاذ بالصمت مرة أخرى . واذ ذاك ، قالت ماريا نيقولايفنا :

ـ ديمترى بافلوفتش ..



«.. هاك يدى فقبلها ، وامض الى سريرك ، وسأبقى
أنا مع السيد « سانين » لنتحدث قليلا » (ص ٢٧٤)

وكانت تريد أن تتكلم ، ولكنها توقفت فجأة . ثم عادت تقول بعد لحظة :

— ديمترى بافلوفتش .. أنا موقنة من أن حصولى على أرضك صفقة رابحة لى ، واننا سنتفق على الثمن . ولكن لابد أن تمهلنى قليلا، حتى انتهى الى قرار. .أمهلنى يومين . هل تستطيع أن تبقى بعيدا عن خطيبتك مدة يومين ؟ لن أحجزك أكثر من ذلك لحظة واحدة ، بغير ارادتك .. أقسم لك ! .. واذا كنت فى حاجة الى خمسة آلاف أو ستة آلاف فرنك ، فأنا مستعدة حتى لاقراضك هذا المبلغ !

فنهض سانين ، وقال لها :

— اننى أشكر لك هذا العرض اللطيف .. انه لغاية فى الكرم منك أن تفكرى فى مساعدتى ، وأنت لا تكادين تعرفينني . ولكننى أفضل أن أنتظر القرار الذى ستنتهين اليه بشأن شراء الارض . واذا كنت تصرين على بقائى هنا يومين ، فسأبقى !

— نعم يا ديمترى بافلوفتش ، اننى أصر . . هذا يشق عليك، يشق عليك جدا ، أليس كذلك ؟ أعترف بأنه كذلك !

— اننى أحب خطيبتى ، ولا يهون على أن أفارقها !

— انك — حقا — لرجل من ذهب . وانى لأعدك بأننى لن أسوف أو أماطل .. ماذا ؟ اتنصرف منذ الآن ؟

قالت ماريا نيقولايفنا هذا ، وهى تطلق من صدرها زفرة . ولكن سانين أجابها :

— ان الوقت متأخر .

ــ وأنت فى حاجة الى الراحة بعد السفر ، وبعد لعب الورق مع زوجى .. أخبرنى ، أأنت صديق حميم لزوجى ؟

ــ لقد كنا زميلين فى فترة الدراسة .

ــ هل كان فى ذلك الوقت كما هو الآن ؟

ــ ماذا تقصدين بـ « كما هو الآن » ؟

وانفجرت ماريا نيقولايفنا ضاحكة ، واصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، فحملت منديلها الى شفتيها ، ثم نهضت وهى تترنح ، فاقتربت من سانين ، ومدت اليه يدها . فحياها ، واتجه نحو الباب . وهنا قالت له :

ــ الى الغد صباحا .. فى ساعة مبكرة .. هل تفهمنى ؟

فلما التفت سانين ، رأى ماريا نيقولايفنا قد عادت ، واستلقت على أريكتها ، وشبكت يديها وراء رأسها . وكان كما ثوبها الواسعان قد انزلقا حتى الكتفين ، فكان يستحيل على المرء الا يعترف بأنها كانت اذ ذاك فى وضع مغر للغاية ، وانها كانت امرأة تفيض سحرا وأنوثة !

ــ ٣٦ ــ

كان الليل قد انتصف منذ مدة طويلة ، والمصباح ما يزال مضيئا فى غرفة سانين . وكان الشاب جالسا الى المنضدة ، يكتب الى « حبيبته جيما » . وراح يقص عليها فى خطابه كل ما وقع له ، ويصف لها أسرة بوزلوف ــ الرجل وزوجته ــ وبعد أن أفاض فى التعبير عن عواطفه نحو فتاته ، ختم رسالته بأن ضرب لها موعدا للقاء بعد ثلاثة أيام !

ونهض من نومه فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، فأودع رسالته صندوق البريد ، ومضى يطوف قليلا فى حديقة « الاستشفاء » ، حيث كانت الموسيقى تعزف منذ ذلك الوقت المبكر من الصباح .. ولم يكن بالحديقة عدد كبير من الرواد ، فتوقف سانين قليلا أمام الرواق الذى كانت تعزف فيه الجوقة ألحانا منوعة ، واحتسى فنجانا من القهوة ، ثم مضى يضرب فى ممر بعيد بين الاشجار ، وجلس أخيرا على أحد المقاعد ، واستغرق فى أفكاره . وفيما هو كذلك ، اذا بمقبض مظلة يلكزه فى كتفه بشىء من القوة ، فانتفض ، والتفت وراءه ، فرأى ماريا نيقولايفنا واقفة أمامه . وكانت ترتدى ثوبا لونه رمادى ضارب الى الخضرة ، وقد وضعت على رأسها قبعة من نسيج دقيق أبيض ، ولبست قفازين جميلين من صنع السويد . وكانت تفيض نضارة وحيوية مثل صباح يوم مشرق من أيام الصيف . وكانت فى حركاتها ونظراتها ما تزال تشيع آثار نوم هادىء عميق . وابتدرت سانين قائلة :

ـ عم صباحا .. لقد أرسلت اليك من يسأل عنك ، لكنك كنت قد خرجت . لقد شربت لفورى كأسى الثانية من الماء المعدنى ، فهم يرغموننى هنا على شرب الماء المعدنى ، لا أدرى لماذا ؟ أأنا مريضة ، أنا ؟ .. وبعد شرب الماء ، يجب على أن أسير مدة ساعة كاملة .. ولكن هل تريد أن ترافقنى ؟ ولسوف نحتسى القهوة بعد ذلك !

فأجابها سانين وهو ينهض :

ـ لقد تناولت القهوة ، ولكن يسعدنى أن أصحبك فى المسير !

ـ اذن هات ذراعك ، ولا تخش شيئا ، فخطيبتك ليست هنا ، ولن تراك !

فضحك سانين ضحكة مصطنعة .. وكان كلما تحدثت السيدة بوزلوف عن جيما ، شعر بشىء من الانزعاج ، لكنه أطاعها رغم ذلك . فدست المرأة ذراعها تحت ذراعه ببطء واسترخاء ، وطوقتها ، ثم التصقت به . وقالت وهى تضع مظلتها المفتوحة على كتفها :

ـ هنا .. فى هذه الحديقة ، أحس كأننى فى بيتى . وسوف أريك أجمل أركانها ، ولكن هل تعلم ؟ (وكانت تستخدم هذه العبارة كثيرا) اننا لن نتحدث الآن عن أرضك ، فبعد الافطار سندرس الموضوع على مهل . ولكن حدثنى الآن عن نفسك .. أريد أن أعرف من هو الشخص الذى أسير معه ! .. واذا كان يعنيك بعد ذلك أن أحدثك عن نفسى ، فعلت . هل توافق ؟

ـ ولكن ليس فى حياتى شىء يستحق أن يروى ، يا ماريا نيقولايفنا .

ـ عفوا ، عفوا .. انك لم تفهمنى حق الفهم . فليس فى نيتى أن استرسل معك فى شىء من المغازلة !

ورفعت كتفيها ، ثم أردفت :

ـ رجل له خطيبة كالتمثال جمالا ، من اضاعة الوقت أن احاول مغازلته ! .. لا .. لا .. أنت بائع ، وأنا مشترية ،

وأحب أن أعرف ماذا أشترى .. وانا لا تهمنى البضاعة التى أشتريها فحسب ، بل يهمنى أيضا بائع البضاعة ! .. تلك قاعدة كان أبى يسير عليها فى أعماله .. هيا ، اننى مصغية اليك ، وتستطيع أن تغفل مرحلة الطفولة .. ابدأ باليوم الذى سافرت فيه الى الخارج . أين كنت قبل أن تأتى الى ألمانيا ؟ لا تتعجل كثيرا فى سيرك ، فما من شىء يستحثنا على الاسراع .

– كنت فى ايطاليا ، وقد قضيت فيها بضعة أشهر .

– لكأنك اذن تحب كل ما هو ايطالى . لماذا لم تعثر على خطيبتك هناك ؟ .. اتراك تحب الفنون ؟ اللوحات ؟ أم لعلك تؤثر الموسيقى ؟

– أحب الفنون .. أحب كل ما هو جميل !

– والموسيقى أيضا ؟

– والموسيقى أيضا !

– أما أنا فلا .. لا أحب الا الأغانى الروسية . بل اننى لا أحب هذه الاغانى الا فى القرية ، وفى الربيع ، أثناء الرقص .. هل تعلم ؟ انه رائع جدا منظر الفلاحين بقمصانهم الحمراء فى المراعى النضرة .. تكلم .. لماذا لا تتكلم ؟

وكانت ماريا نيقولايفنا لا تحول نظرها عن سانين وهما يسيران . ولما كانت فارعة القوام ، فقد كان وجهها فى مستوى وجه الشاب تقريبا .. وانطلق سانين يحدثها عن أسفاره حديثا مضطربا فى أول الأمر – اذ كان يتكلفه على سبيل القيام بالواجب – لكنه ما لبث أن انتعش شيئا

فشيئا ، فأخذ يتكلم فى تدفق وحرارة . وكانت ماريا نيقولايفنا تجيد الاصغاء . وكان يبدو على وجهها من سمات الصدق ما يحمل الآخرين على التزام الصدق معها . وكانت تملك تلك الموهبة العجيبة التى تحدث عنها « كاردينال ريتس » : « موهبة رفع الكلفة » !

وبعد أن فرغ سانين من الكلام عن أسفاره ، عرج فى حديثه على حياته فى (بطرسبرج) وعلى ذكرياته فيها . **ولو قد كانت ماريا نيقولايفنا سيدة متكلفة من سيدات المجتمع الراقى ، اللواتى يحرصن على آداب السلوك والمجاملة حرصا زائدا ، لما انساق سانين فى حديثه على ذلك النحو الذى انساق به** . لكن ماريا نيقولايفنا كانت امرأة منطلقة ، حتى لقد كانت تصف نفسها بأنها أشبه « بفتى مرح يكره التصنع » !.. على أن ذلك لم يمنعها من أن تسير الى جانبه متلوية متثنية ، وأن تميل عليه مستندة الى ذراعه . وكانت لا تنى تنظر فى عينيه .. ولقد كان ذلك « الفتى المرح » امرأة شابة تنشر فيما حولها جوا ساحرا من السكر والنشوة ، جوا أخاذا مفعما بالهدوء والفتنة ، لا تنشره فيما حولهن الا السلافيات الحسان ، ولا يستطيع البشر ، بما يتميزون به من ضعف ، أن يقاوموا ما فيه من اغراء وغواية !

***

ودامت نزهة ماريا وسانين فى الحديقة ، وما تخللها من حديث بينهما ، ساعة كاملة ، لم يتوقفا أثناءها مرة واحدة ،

بل راحا يسيران دائما الى الأمام ، مرتادين تلك الدروب الطويلة من الحديقة التى لم يكن لها نهاية .. وكانا يجتازان الرابية ، فيتأملان جمال المناظر ، ثم يدلفان الى المنحدر ، فيغيبان بين ظلال الاشجار ، وقد تشابكت ذراعاهما اللتان لم تنفصلا لحظة واحدة .. وكان سانين لا يفتأ يؤنب نفسه ويلومها لعدم خروجه يوما مع حبيبته الغالية جيما فى نزهة طويلة كتلك التى يقوم بها الآن . سيما وان رفيقته كانت تستأثر به فى تلك اللحظة من دون جيما الغائبة . فطفق يسأل ماريا بين الحين والآخر :

ـ ألم تتعبى ؟

فكانت تجيبه بقولها :

ـ أنا لا أتعب أبدا !

وكان يتفق لهما أن يصادفا بعض المتنزهين . فكانوا جميعا يحيون الأميرة بوزلوف ، بعضهم فى احترام ، وبعضهم فى شبه ذل وهوان . وقد هتفت ماريا فى أحدهم ، وكان شابا أسمر أنيقا ، تقول :

ـ كونت ، يجب ألا تزورنى لا اليوم ولا غدا !

فرفع الكونت قبعته احتراما ، وانحنى انحناءة كبيرة ، دون أن ينطق بكلمة . وسألها سانين وقد استبد به شيطان حب الاستطلاع ، كما يستبد عادة بجميع الروس :

ـ من يكون هذا الشاب ؟

ـ من يكون ؟ انه شاب فرنسى ، وأمثاله هنا كثيرون . وهو

يتودد الى ويتقرب منى ، محاولا أن يطارحنى الهوى .. لقد آن لنا أن نشرب القهوة ، فلنعد .. وأنا واثقة أنك تموت جوعا . ولا شك أن «عريسى» قد فك الآن التصاق عينيه !!

وأخذ سانين يقول لنفسه : « عريسى .. فك التصاق عينيه .. ما هذه المخلوقة العجيبة ! .. ثم يا لها من لهجة باريسية صميمة خالصة ! » . ولم تخطىء ماريا نيقولايفنا الظن . فحين عادا الى الفندق ، وجدا « عريسها » أو « فطيرتها الصغيرة » ، قد جلس أمام المائدة الممدودة ، وعلى راسه طربوش . وقال لهما فى حدة :

ـ لقد مللت الانتظار ، وكدت أشرب القهوة وحدى !

فهتفت ماريا نيقولايفنا فى مرح :

ـ حسنا ، حسنا .. أأنت غاضب ؟ ان هذا يفيد صحتك .. انك لا تقوم بأى تمرين ، فهيا أقرع الجرس ، وسوف نشرب القهوة ، الذ قهوة فى العالم ، وسنتناولها فى أقداح فخمة ، تحتها مفرش أبيض كالجليد !

وخلعت قبعتها وقفازيها ، وأخذت تصفق . ونظر اليها بوزلوف من تحت حاجبيه ، ثم قال لها بصوت خافت :

ـ ما الذى جعلك اليوم تبدين مثل هذا المرح يا ماريا نيقولايفنا ؟

ـ هذا ليس من شأنك يا هيبوليت سيدوروفتش .. اقرع الجرس .. اجلس يا سيد سانين ، واشرب القهوة مرة ثانية هذا الصباح .. آه ، ما أكثر ما أحب أن آمر هذه لذتي الكبري .. !

فهمس بوزلوف يكمل لها عبارتها :

ـ وأن تطاعى !

ـ طبعا ، وان أطاع . ولهذا أنا سعيدة معك ، أليس كذلك يا فطيرتى الصغيرة ؟ آه ، ها هى ذى القهوة !

وكان على الصينية الكبيرة التى جاء بها الخادم ، برنامج سهرة المساء ، فأسرعت ماريا نيقولايفنا تتناوله ، فما أن ألقت نظرة عليه ، حتى صاحت غاضبة :

ـ دراما .. دراما ألمانية .. هى على كل حال خير من الكوميديا الالمانية .. أحجز لى « لوج » ، بل « بينوار » ، بل .. أحجز لى « بينوار أجانب » .. أفضل هذا .. « بينوار أجانب » ، هل فهمت ؟

ـ ولكن ماذا أصنع ، اذا وجدت أن سعادة عمدة المدينة قد سبقنا الى حجزه ؟

ـ تدفع لسعادته عشر ليرات ذهبية ، فيصبح «البينوار» لى .. أفهمت ؟

فأطرق الخادم فى حزن وخضوع . ثم قالت مخاطبة سانين :

ـ ديمترى بافلوفتش ، ستصحبنى الى المسرح .. صحيح أن الممثلين الالمان لا يطاقون ، ولكنك ستصحبنى ؟ موافق ، هه ؟ الا ما ألطفك ! .. وأنت ، يا فطيرتى الصغيرة ، ألا تأتى معنا ؟

فتمتم ، يجيبها وفنجان القهوة بين شفتيه :

ـ كما تريدين !

ـ هل تعلم ؟ ابق فى البيت ، فانك تنام فى المسرح . ثم انك لا تفهم الالمانية فهما جيدا . اكتب للوكيل ردا على رسالته بشأن الطاحونة ، وطحين الفلاحين ، وقل له اننى لا أوافق .. ان هذا كفيل بأن يشغل السهرة كلها !

ـ حسنا .

ـ انك لفتى عاقل .. والآن ، ما دمنا قد تحدثنا عن الوكلاء وما الى ذلك ، فلنبحث المسألة الأساسية .. مر الخادم أن يحمل ما يوجد فوق المائدة .. والآن أشرح لنا الموضوع يا سيد سانين . أذكر لنا الثمن الذى تطلبه ، وشروط الدفع ، وكل شىء !

وقال سانين لنفسه : « ها نحن قد وصلنا أخيرا ! » .
وأردفت السيدة بوزلوف تقول :

ـ لقد سبق أن حدثتنى فى الأمر ، فوصفت لى أرضك وصفا دقيقا ، ولكن « فطيرتى الصغيرة » لم تكن معنا ، ولا بد أن يكون على علم بالموضوع .. وانه ليسعدنى أن أحس بأن فى وسعى أن أسهل لك زواجك . ثم اننى قد وعدتك أن ندرس المسألة بعد الافطار ، وأنا حريصة على الوفاء بوعدى دائما ، أليس كذلك يا صديقى هيبوليت سيدوروفتش ؟

ففرك بوزلوف وجهه براحتى يديه ، وقال :

ـ هذه هى الحقيقة بعينها .. أنت لا تكذبين ابدا على احد !

ـ أبدا ، أبدا .. ولن أكذب على أحد ما حييت ! هيا يا سيد سانين : « ترافع فى قضيتك » ، على حد تعبير المحاكم !

- ٣٧ -

« **وترافع سانين فى قضيته** » ، فأخذ يصف أرضه مرة ثانية ، ولكن دون أن يشير الى جمال الطبيعة فيها . وكان من حين الى حين يطلب الى بوزلوف أن يؤيد ما كان يذكره من وقائع وارقام . لكن هذا كان يكتفى بهز رأسه مفمغما . فلم يكن أحد يدرى ما اذا كانت إيماءته علامة على التأييد أم مجرد التفكير . على أن ماريا نيقولايفنا لم تكن فى حاجة الى الاستعانة برأى زوجها . وقد برهنت على أنها امرأة تفهم فى شئون الاعمال فهما كبيرا . حتى لقد كانت على علم كامل بجميع ما يتعلق بادارة الاراضى من أسرار .. استفسرت عن كل شىء ، ودخلت فى أدق التفاصيل ، ووضعت النقاط على الحروف فى كل المسائل !

ومضى سانين يتحدث ساعة ونصف ساعة . فكان يشعر بجميع انواع العذاب والضيق التى تنتاب المتهم الجالس على مقعد ضيق ، أمام قاض شديد القسوة بارع الحيلة . وكان يقول لنفسه : « وكأننى بصدد تحقيق ! » .. وكانت ماريا نيقولايفنا لا تكف عن الابتسام ، وكأنما أرادت بذلك أن تبين أنها انما كانت تمزح ، لكن هذا لم يكن ليسرى عن سانين . وما لبثت أن قالت أخيرا :

ـ حسنا ، حسنا ، لقد عرفت الآن أرضك كما أعرفك . فما هو الثمن الذى تطلبه عن كل نفس ؟

وكانت الاراضى فى ذلك العهد تباع على أساس عدد الارقاء المرتبطين بالارض . فقال سانين ، وقد تحامل على نفسه :

ـ لا أقل من خمسمائة روبل للنفس ، فيما أقدر !

ورفعت ماريا نيقولايفنا عينيها الى السماء ، كأنما لتقدر المبلغ فى ذهنها ، ثم قالت :

ـ حسنا .. يخيل الى أن السعر معقول ، ولكننى سألتك أن تمهلنى يومين ، ويجب أن تنتظر حتى الغد . واحسب أننا سنتفق . وانني أترك لك أن تحدد أنت نفسك القسط الاول . والآن حسبنا هذا ! **(وكانت ماريا نيقولايفنا قد لاحظت أن سانين يهم بأن يجيب) ..** فلقد شغلنا بحديث المعدن الخبيث مدة كافية من الوقت ، وغدا نستأنف الكلام فى الاعمال . هل تعلم ؟ أننى أعتقك الآن ..

ونظرت الى ساعة صغيرة مزينة بالاحجار الكريمة ، وأردفت :

ـ .. حتى الساعة الثالثة .. انك فى حاجة الى قليل من الراحة . فاذهب ، والعب الروليت !

ـ ولكننى لا ألعب أى نوع من ألعاب الميسر !

ـ حقا ؟ انك اذن الكمال بعينه ! .. على اننى لا ألعب أنا أيضا .. انها لحماقة أن يلقى المرء بماله فى الهواء .. انه يخسر حتما .. ولكن ، ادخل قاعة اللعب مع ذلك ، لا لشىء الا لترى وجوه اللاعبين . فان بينها وجوها مضحكة حقا .. هناك سيدة عجوز ، تضع فى أذنيها قرطين كبيرين ،

ولها شاربان .. ان منظرها لذيذ ! .. وهناك أيضا أمير روسى ، فريد فى نوعه .. ان له وجها جليلا ، وأنفا معقوفا كمنقار نسر . وكلما أوشك أن يخسر ليرة ، رسم اشارة الصليب تحت صديريته .. ثم اقرأ الصحف ، أو تنزه .. افعل ما يحلو لك ، ولكن لا تنس أننى انتظرك فى الساعة الثالثة .. سأنتظرك حتما ، وسنتناول العشاء معا .. ان هؤلاء الالمان السخفاء يبدأون التمثيل فى السادسة والنصف !

ومدت اليه يدها ، وهى تقول :

ـ أأنت حاقد على ؟

ـ وفيم الحقد يا ماريا نيقولايفنا ؟

ـ لاننى عذبتك .. ثم اننى لم أنته بعد ، وسترى ما ينتظرك !

وطرفت عيناها ، وبرزت غمازاتها الصغيرة كلها فى خديها . ثم قالت :

ـ الى اللقاء

وحياها سانين مودعا ، وخرج من الصالون . واذ ذاك انطلقت ضحكة صاخبة وراءه . ونظر فى مرآة كانت أمامه ، فاذا هو يلمح ماريا نيقولايفنا وقد راحت تضرب طربوش زوجها حتى أوصلته الى أنفه ، بينما أخذ بوزلوف يحرك ذراعيه يائسا ، ليخرج عينيه من تحت الطربوش !

ـ ٣٨ ـ

ما أن وصل سانين الى غرفته ، حتى انطلقت من صدره زفرة ارتياح وغبطة بالفين . فقد كانت ماريا نيقولايفنا

محقة حين قالت انه فى حاجة الى الراحة .. والحق أن سانين كان أشد ما يكون حاجة الى الراحة من علاقاته الجديدة ، وماجلبته له معها من اجتماعات وأحاديث ومن ذلك الضجيج الحاد الذى نفذ الى رأسه والى نفسه ، بل من ذلك التقارب ، الذى لم يتوقعه ولا تمناه ، والذى نشأ بينه وبين امرأة كان يحس انها غريبة عنه . ومما ضاعف من اكتئابه أنه صادف مغامرته الجديدة غداة عرف أن جيما تحبه ، وغداة أصبحت خطيبته . فكان يحس بأنه قد اقترف فعلة دنس بها حبه المقدس ! .. وراح يستغفر ألف مرة - بينه وبين نفسه - حبيبته الطاهرة البريئة ، رغم أنه لم يدر سببا لشعوره بالاثم . ثم تناول الصليب الصغير الذى أهدته اياه جيما ، وطفق يقبله المرة تلو المرة . ولولا أنه كان يأمل فى انهاء الصفقة التى جاء من اجلها الى (فسبادن) ، للاذ بالفرار سريعا ، وعاد الى فرنكفورت العزيزة ، قاصدا الى ذلك البيت الحبيب الذى صار يعده بيته هو، ليرتمى عند قدمى جيما ، طالبا الصفح والغفران !

ولكن لم يكن ثمة دواء لعلته . وقد أحس بأنه لابد له أن يشرب الكأس حتى الثمالة ، وأنه يتحتم عليه أن يرتدى ملابسه ، فيتناول عشاءه مع تلك المرأة ، ويصحبها الى المسرح . وكان يقول لنفسه : «المهم أن تدعنى أسافر غدا !» .. وكان هناك شىء يقلقه ويزعجه . فرغم انه كان يفكر فى جيما فى وله ، وشوق ، ونشوة ، وان نفسه كان تهفو الى الحياة التي سيعيشانها معا ، والى السعادة التى تنتظرهما ،

الا أن صورة تلك المرأة العجيبة ـ زوجة بوزلوف ـ كانت تطارد خياله ، فى اصرار ، جعله يتمثلها امام عينيه على الدوام . **وكان يشعر بالجزع لعجزه عن التحرر من رؤية طيفها وسماع صوتها ، واخفاقه فى أن يطرد من ذهنه ذكرى كلماتها الحلوة ، وأن يتخلص من رائحة العطر المسكر العذب الذى كان يفوح من ثيابها ، وكأنه شذى زنبقة صفراء !**

وكان سانين لا يفتأ يقول لنفسه : « من المؤكد أن هذه المرأة تعبث بى ، وانها تستخدم فى ذلك كافة الاساليب والألاعيب . ولكن ترى ما الذى تبيته لى ؟ وما الذى تريده منى؟ . . هل هذا كله مجرد نزوة من نزوات امرأة غنية مدللة ، لا تراود ضميرها وساوس ، ولا تعرف أى شعور بالحرج ؟ .. والزوج ؟ ما هذا الانسان العجيب ؟ وما عسى أن تكون علاقته بزوجته اذن ؟ » .. وقد استاء سانين ايما استياء لفشله فى الهروب من تلك الاسئلة التى راحت تتلاحق فى رأسه البائس عن ماريا نيقولايفنا وزوجها السيد بوزلوف . وأحس بوخز الضمير لعجزه عن التخلص من تلك الصورة التى لم تكف عن محاصرة خياله ، حتى حين كانت نفسه كلها تتجه نحو صورة أخرى مشرقة صافية كضوء النهار . واستنكر أن يجرؤ وجه تلك المرأة على أن يقف حاجزاً بينه وبين الملامح الملائكية لوجه حبيبته . وهاله انها كانت تبتسم له بوقاحة، بعينيها الزرقاوين ، وغمازات وجنتيها ،وجدائل شعرها المتلوية المتعرجة ، حتى لقد راح يسائل نفسه ما اذا كان قد صار حقا اسيرها الذي لا يقوى علي التخلص من

اغلال سحرها !

وكان سانين يطرح على نفسه تلك الاسئلة كلها ، بينما كانت الساعة التى يجب أن يوافى فيها ماريا نيقولايفنا تدنو وتقترب . فارتدى ملابسه ، وبعد أن طاف فى الحديقة قليلا، مضى الى حيث كانت ماريا فى انتظاره . فلما وصل ، وجد معها فى الصالون سكرتير السفارة الروسية ، وكان رجلا طويل القامة ، أشقر الشعر ، له وجه أشبه بوجه الحصان ، وقد فرق شعر رأسه من الخلف ، طبقا لموضة حديثة كانت قد بدأت تظهر فى ذلك الوقت . على أنه ما أن وقعت انظاره على الرجل الآخر الذى كان يجلس معها ، حتى ذهل من هول المفاجأة . اذ لم يكن ذلك الرجل أحداً سوى البارون فون دنهوف الذى تبارز معه سانين منذ ثلاثة أيام .. ولم يكن سانين يتوقع أن يلقاه عند الاميرة ، فلما حياه اضطرب اضطرابا لم يستطع له دفعا. واذ ذاك سألتهما ماريا ، وقد لحظت ارتباك سانين :

ـ أأنتما متعارفان ؟

فأجابها دنهوف بقوله :

ـ نعم ، لقد تشرفت بمعرفته قبل الآن !

ثم مال على الاميرة ، واستطرد يقول لها بصوت خافت :

ـ هذا هو مواطنك الروسى !

فصاحت المرأة الشابة متعجبة :

ـ احقا ؟ !

ثم لوحت للضابط بأصبعها مهددة ، ولم تلبث أن نهضت لتودعه هو وسكرتير السفارة .

وكان واضحا أن الدبلوماسى متدله فى حب ماريا نيقولايفنا ، حتى لقد كان يفغر فاه اعجابا كلما نظر اليها . أما دنهوف فقد انسحب فورا ، بطواعية لطيفة ، كصديق من أصدقاء الاسرة يفهم ما يطلب منه تلميحا . على حين بدا على السكرتير أنه يريد أن يبقى ، فما كان من ماريا نيقولايفنا أن طردته دون احتفال ، قائلة له :

ـ اذهب الى صاحبة السمو ، اذ فيم وجودك عند امرأة من الشعب مثلى ؟

وكانت تعيش فى فسبادن ، فى ذلك الحين ، أميرة من (موناكو) ، سيئة السيرة . فقال السكرتير :

ـ ان جميع أميرات الدنيا يا سيدتى ..

لكن ماريا نيقولايفنا لم تدعه يتم كلامه ، ولم ترحم مذلته وخضوعه ، بل أرغمته على الانصراف فورا ، رغم الفرق الذى كان يزين به شعره من الخلف ! .. وكانت ماريا نيقولايفنا فى أبهى ملابسها . فقد كانت ترتدى ثوبا وردى اللون براقا ، ذا كمين ضيقين . وقد زينت أذنيها بقرطين من الماس . وكانت عيناها ترسلان وميضا أشبه بوميض قرطيها الماسيين . وكانت منطلقة المزاج ، جياشة الروح . فلما قاما الى المائدة ، جلست الى جانب سانين ، وراحت تحدثه عن (باريس) التى كانت تعتزم السفر اليها بعد بضعة أيام ، وقالت له انها قد سئمت هؤلاء الالمان الذين

يتصفون بثقل الظل حين يريدون أن يكونوا ظرفاء ، ويتميزون بالظرف — فى غير مناسبة — حين يتفوهون بأشياء سخيفة .
ثم سألته فجأة :

— هل صحيح انك تبارزت مع الضابط الذى التقيت به هنا منذ لحظة ؟

فدهش سانين ، وقال :
— كيف عرفت ذلك ؟

— عجبا !.. ما من شىء يظل خافيا ، يا ديمترى بافلوفتش . وأنا أعلم أيضا أنك كنت على حق ، على حق تماما ، وأنك تصرفت تصرف فارس شجاع .. قل لى .. هل كانت تلك المرأة خطيبتك ؟

فقطب سانين حاجبيه قليلا ، ولم يجب . فأردفت ماريا نيقولايفنا تقول بحرارة :

— لا داعى للاجابة .. لا داعى للاجابة .. اننى ألاحظ أن ذلك يزعجك .. معذرة .. اعتبر اننى لم أقل شيئا ، ولا تغضب !

وفى تلك اللحظة ، دخل بوزلوف من الغرفة المجاورة ، وقد أمسك بيده احدى الصحف . فسألته زوجته :
— ما الذى جاء بك ؟ هل أعدت المائدة ؟

— لم تعد بعد .. هل تعرفين أى نبأ قرأت فى جريدة « نحلة الشمال » ؟ لقد مات الأمير جروموبوى !
ورفعت ماريا نيقولايفنا رأسها ، وقالت :
— رحمة الله عليه !

ثم التفتت الى سانين ، وأضافت :

ـ كان الأمير جروموبوى ، فى شهر فبراير من كل عام ، يزين بيتى بأزهار الكاميليا احتفالا بعيد ميلادى .. وكان هذا لطيفا منه ، ولكنه لم يستحق أن أقضى الشتاء فى بطرسبرج من أجله !

ثم التفتت الى زوجها ، تسأله :

ـ ماذا كان عمره ؟ سبعون سنة ؟

ـ على الأقل .. ولكن ما أروع جنازته ! لقد خرج البلاط كله لتشييعها . وفى الجريدة ، قصيدة للأمير كوفرجكين نظمها فى رثائه .

ـ عظيم .

ـ هل تريدين أن أقرأ لك القصيدة ؟

ـ لست حريصة على ذلك .. هيا بنا الى العشاء .. ان الحى يفكر فى الحياة !.. هات يدك ، يا ديمترى بافلوفتش !

وكان العشاء حافلا كما كان بالامس ، الا انه كان أكثر بهجة وحرارة . وكانت ماريا نيقولايفنا تجيد الحديث ، وهى موهبة نادرة عند المرأة ، وخاصة عند المرأة الروسية . وكانت لا تنتقى عباراتها ، ولا تتصنع الرقة فى ألفاظها ، وكانت تتندر على مواطنيها ، حتى لقد ضحك سانين أكثر من مرة ، لأن كلماتها اللاذعة كانت تضرب على وتر حساس ، وتصيب كبد الحقيقة .. وكانت ماريا نيقولايفنا تكره الادعياء ، والمتحذلقين ، والمنافقين ، وما كان أكثرهم حولها ! **ولكنها**

كانت تعتز بأنهـا ولدت فى بيئة فقيرة متواضـعة ، فانطلقت تروى أغرب النوادر وأدهشها عن ذويها فى أيام طفولتها ..

وأدرك سانين ، مما سمعه ، أن ماريا نيقولايفنا قد قاست من المحن فى حياتها مالم تقاسه من كانت فى مثل سـنها من النساء !

وكان بوزلوف يأكل وقد استغرق فى التفـكير ، ثم يشرب وقـد عاد اليه انتباهه ويقظته . ولم يكن يرفع رأسـه نحو امرأته ونحو سانين الا من آن الى آخر ، فتظهر اذ ذاك عيناه الصـفيرتان الضـاربتان الى البياض فى لونهمـا ، واللتـان يحسبهما المرء ضريرتين ، بينما هما ، فى حقيقة الامر ، تبصران أحسن أبصار . وقالت ماريا نيقولايفنا لزوجها فجأة :

ـ أنت عظيم يا حبيبى .. لقـد أجدت شراء لوازمى من فرنكفورت أيما اجادة .. وددت لو قبلتك فى جبينك ، لولا أنك لا تحب ذلك !

فأجابها ، وهو يقطع ثمرة أناناس بسـكين من فضة :

ـ بلى .. أنا لا أحب ذلك !

ـ ورهاننا ، أأنت مصر عليه ؟

ـ أجل ، أنا مصر .

ـ ولكنك ستخسر ؟ !

ـ أعتقد أنك أنت التى ستخسرين الرهان فى هذه المرة ، رغم كل ما تعمدين اليه وتعولين عليه !

ثم مد ذقنه الى الامام . فسأل سانين :

ـ رهان ؟ على ماذا ؟ أم أنه سر ؟

فقالت ماريا نيقولايفنا وهى تضحك :

ـ لا ، ليس سرا ، ولكننى لا أستطيع أن أذكر لك عنه شيئا الآن .. سأخبرك فيما بعد !

ودقت الساعة السابعة . فجاء خادم يعلن أن العربة فى الانتظار . فرافق بوزلوف زوجته حتى الباب ، ثم عاد يجلس على أريكته . الا انها ما لبثت أن صاحت من حجرة المدخل ، تقول :

ـ لا تنس كتابة الرسالة الى الوكيل !

فأجابها بقوله :

ـ لا تخافى ، فسوف أكتبها .. اننى انسان لا يخلف مواعيده قط !

- ٣٩ -

فى عام ١٨٤٠ ، كان مسرح (فسبادن) مبنى من أبشع المبانى . أما فرقته الضعيفة المتداعية ، التى كانت تجرى على وتيرة واحدة فيما تقدمه من تمثيليات ، فكان مستواها لايكاد يعلو على مستوى سائر المسارح الالمانية فى ذلك العصر ، كمسرح (كارلسروهه) ، الذى كان يديره «دفريانت» الشهير ، والذى يمكن أن يعد نموذجا لذلك النوع من المسارح !

وكان وراء « اللوج » الذى استأجرته « صاحبة السعادة السيدة فون بوزلوف » ـ ولا يعلم الا الله بأية حيلة استطاع الخادم أن يستأجر هذا اللوج ، ولا شك أنه لم يخطر بباله أن يدفع لسعادة عمدة المدينة بقشيشا لقاء تنازله عنه ـ صالون صغير صف فيه عدد من الارائك !

وقد طلبت ماريا نيقولايفنا الى سانين - قبل أن تدلف الى اللوج - أن يسدل الستائر التى تفصل اللوج عن القاعة ، قائلة :

- لست أحرص على أن يرانى أحد ، والا جاءوا يزعجوننى واحدا بعد آخر !

وأجلست سانين الى جانبها ، جاعلة ظهرها الى القاعة ، حتى يبدو اللوج خاليا . وكانت الاوركسترا تعزف افتتاحية « زواج فيجارو » . ولم يلبث أن رفع الستار . وكانت المسرحية فى تلك الليلة واحدة من تلك التمثيليات الألمانية التى يحاول فيها الممثلون - وكانوا على جانب كبير من الفضل والعلم ، وأن اعوزتهم الموهبة - أن يعبروا ، بلغة سلسة جزلة ولكنها ميتة ، وبمجهود كبير ولكنه عقيم ، عن فكرة « عميقة » أو « خطيرة » من خلال « صراع تراجيدى » يبعث فى النفس سأما . آسيويا (قياسا على الكوليرا الآسيوية) !!

وتذرعت ماريا نيقولايفنا بالصبر ، فظلت تصغى الى منتصف الفصل الاول ، حتى اذا أخذ الفتى الاول ، وقد أيقن أن حبيبته تخونه (وكان الفتى الاول يرتدى سترة فضفاضة ، بنية اللون ، مرصعة بالصدف ، وقفازين أبيضين صنعا من جلد الغزال) يطلق صراخا أشبه بنباح الكلاب ، واضعا يديه على صدره ، مباعدا ما بين قدميه ، لم تطق ماريا نيقولايفنا أن تحتمل أكثر مما احتملت ، فقالت فى استياء :

- ان أضعف ممثل فرنسي فى أصغر مدينة بالريف ،

يمثل خيرا مما يمثل هذا النجم الالمانى الشهير !

ثم انتقلت الى الصالون ، وقالت لسانين ، وهى تشير بيدها الى المكان الذى الى جانبها :

ـ تعال هنا ، وسنتحدث !

فأطاع سانين . فنظرت اليه ماريا نيقولايفنا ، وقالت :

ـ انك لمطيع حقا ، وستعيش زوجتك معك حياة سهلة ! .. أن هذا الاحمق (واشارت الى الممثل الذى كان ما يزال يصيح) يذكرنى بصباى (وكان الممثل يقوم بدور مربى فى أسرة) .. لقد أحببت أنا أيضا الرجل الذى كان يتولى تربيتى .. **كان ذلك غرامى الاول .. بل غرامى الثانى ، لأن الشخص الاول الذى أحببته كان راهبا من رهبان دير « دون »** . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى ، وكنت لا أراه الا يوم الاحد .. كان يرتدى لباسا مخمليا ، ويتعطر بماء الخزامى ، ويشق طريقه بين الحشد الحافل ، وهو يهز مبخرته ، قائلا للسيدات باللغة الفرنسية : « معذرة .. عفوا .. ! » ، ولا يرفع بصره أبدا . وكانت أهدابه طويلة هكذا !

قالت ماريا نيقولايفنا ذلك ، وهى تشير بظفر السبابة الى نصف خنصرها . ثم أردفت ، تتم حديثها :

ـ أما المربى فكان اسمه مسيو جاستون . وكان رجلا غزير العلم ، شديد القسوة .. كان سويسريا ، ضخم الرأس ، أسود اللحية ، أغريقى القسمات ، له شفتان كأنهما مقدودتان من البرونز . وكنت أخافه ، ولعله الرجل الوحيد الذي خشيته منذ ولدت ! .. وكان قد تولي تربية أخي من

قبلى .. أخى الذى مات غرقا .. لقد تنبأت لى عرافة غجرية بميتة عنيفة ، ولكننى لاأصدق هذه النبوءات .. انها أمور صبيانية .. هل تتصور زوجى وقد أشهر خنجرا ؟

- الموت العنيف يمكن أن يحدث بغير هذه الطريقة !

- كل هذا سخافات .. ترهات .. أتؤمن أنت بهذه الخرافات ؟ أما أنا فلا ، ولا بد مما ليس منه بد ! .. كان مسيو جاستون يسكن اذن فى بيتنا . وكان يحتل الغرفة التى تقع فوق غرفتى . وكنت كثيرا ما استيقظ فى الليل ، فأسمع وقع خطواته فوق رأسى . وكان لا ينام الا فى ساعة متأخرة . فكان قلبى يفيض عندئذ تقديرا أو اجلالا ،لا أدرى .. وكان أبى لا يكاد يعرف إلقراءة والكتابة ، ولكنه ثقفنا ، وأحسن تثقيفنا .. هل يخطر ببالك أننى أعرف اللاتينية قليلا ؟

- تعرفين اللاتينية ؟ !

- نعم ، لقد علمنى اياها مسيو جاستون .. لقد ترجمت معه الانيادة (١) .. انها مملة جدا ، رغم أن فيها فقرات جميلة .. هل تذكر مغامرة ديدون وانياد فى الغابة ؟

- اذكر ، اذكر !

---

(١) الانيادة : ملحمة شعرية للشاعر اللاتينى « فيرجيل » ، وهى تتألف من اثنى عشرة انشودة ، وتروى مغامرات الأمير « انياد » ، وقصص بطولته فى حربه ضد اليونانيين أثناء حصار (طروادة) .

قال سانين ذلك بسرعة ، رغم أنه كان قد نسى اللاتينية منذ مدة طويلة ، ولم تبق فى ذهنه الا فكرة غامضة عن الانيادة . فرمقته ماريا نيقولايفنا بنظرة جانبية ، دون أن ترفع عينيها ، على عادتها حين كانت تنظر اليه . ثم قالت :

ـ لا تظنن ، مع ذلك ، أننى امرأة على جانب عظيم من العلم .. كلا .. اننى لست على شىء من العلم أبدا ، ولم أوت أية موهبة خاصة .. اننى لا أكاد أجيد الكتابة ، ولا أحسن القراءة جهارا ، ولا أعزف على البيانو ، ولا أرسم ، ولا أتقن الحياكة .. هذه أنا ، لا أكثر ولا أقل !

وباعدت ما بين يديها ، ثم أردفت :

ـ وانما أروى لك ذلك كله أولا : حتى لا نصغى الى هؤلاء الحمقى (وأشارت الى المسرح ، وكان الفتى الاول قد كف عن الصياح ، فأخذت الممثلة تصرخ بدورها ، وقد مدت مرفقيها الى الامام مثله) ، وثانيا : لأننى وحيدة معك .. ألم تقص على أمس قصة حياتك ؟

ـ لقد طلبت الى أن أفعل !

فلما سمعت ماريا نيقولايفنا جوابه ، التفتت نحوه بسرعة ، وقالت :

ـ ألا يهمك أن تعرف اذن أية امرأة أنا ؟ .. ولكن ، طبعا ، طبعا ! .. (وعادت تستند من جديد الى وسائد الاريكة) هل فى وسع رجل مقبل على زواج حب بعد مبارزة ، أن يفكر فى شىء آخر ؟

وظلت ماريا نيقولايفنا مستغرقة فى تفكيرها ، وقد أخذت تضغط مقبض مروحتها بأسنانها الكبيرة المتناسقة ، البيضاء كاللبن .. وأحس سانين ، من جديد ، بذلك الضباب الذى اجتاح رأسه منذ يومين ، ولم يستطع أن يتخلص منه . فقد كان يثيره ذلك الحديث الهامس الذى يدور بينهما ، وكانت تلك المناجاة الخافتة التى يتبادلانها تحدث فى نفسه اضطرابا شديدا .. وتساءل بينه وبين نفسه : « ترى متى ينتهى هذا كله ؟ » .. وهكذا الرجال الضعاف دائما .. انهم لا يحسمون الامر أبدا ، بل ينتظرون أن يزول الموقف الحرج من تلقاء نفسه .. وعطس أحد الممثلين على المسرح . وكان الممثلون قد رتبوا هذا العطاس ، من قبيل الاضحاك ، وهو الشىء الوحيد الذى هيأوه للاضحاك من أول المسرحية الى آخرها . فاستجاب لهم الجمهور شاكرا ، وأخذ يضحك . وكان من شأن هذا الضحك الصاخب المفاجىء أن تفاقم الاضطراب الذى تملك سانين . وكان هذا – فى بعض اللحظات – لا يدرى أهو ساخط أم راض ، وهل هو مستاء أم مسرور .. وقالت ماريا نيقولايفنا فجأة :

– انه لشىء غريب حقا ! .. اذا أراد المرء أن يقول : « سأتزوج » قالها بصوت هادىء ، ولكن أحدا لا يخطر بباله أن يقول : « سأقذف بنفسى الى الماء » فى هدوء . وما الفرق مع ذلك بين الأمرين ؟ .. حقا انه لشىء غريب !

وشعر سانين بحزن مشوب بالغضب ، وقال :

– الفرق كبير جدا ، يا ماريا نيقولايفنا .. هناك أناس

لا يبالون أن يقذفوا بأنفسهم الى الماء لأنهم يعرفون السباحة . والحق أن الزواج الغريب هو الزواج الذى ..

ثم صمت فجأة ، وهو يعض لسانه . فضربت ماريا نيقولايفنا راحة يدها بالمروحة ضربة خفيفة ، وقالت :

ـ أكمل يا ديمترى بفلوفتش ، أكمل .. وكأننى أسمعك تقول : « هلا تذكرت يا سيدتى ، ونحن نتحدث عن الزواج، أننى لا أستطيع أن أتخيل زواجا أغرب من زواجك ؟ .. أننى أعرف زوجك .. أعرفه منذ الطفولة ! » .. هذا ما أردت أن تقوله ، أنت يا من تعرف السباحة !

ـ اسمحى لى ..

ـ ألست على حق ؟ ألا تعترف أننى أدركت ما أردت أن تقوله ؟ انظر الى وجها لوجه .. هل تجرؤ على أن تدعى أننى لم أحدس ما بنفسك ؟

ولم يعرف سانين ماذا يصنع ، لكنه قال أخيرا :

ـ حسنا .. هذا صحيح !

فهزت ماريا نيقولايفنا رأسها ، وأضافت :

ـ آه .. ولقد ساءلت نفسك أيضا ، أنت الذى تجيد السباحة ، عما يدفع الى مثل هذا الزواج ، امرأة ليست بالفقيرة ولا بالغنية .. ولا بالشديدة الدمامة .. ألا يهمك أن تعرف ؟ سيان .. سأشرح لك الأمر مع ذلك، ليس الآن ، بل فى آخر الاستراحة ، فاننى أخشى أن يباغتنا أحد !

وما كادت ماريا نيقولايفنا تتم عبارتها ، حتى انفتح باب

المقصورة ، وأطل من ورائه وجه أحمر ، يغطيه عرق لزج ، وتبدو عليه أمارات الشباب ، ويعلوه شعر طويل ناعم ، وله انف مسطح ، وأذنان ضخمتان كأنهما جناحا خفاش ، وقد وضع منظارا ذهبيا على عينين صغيرتين ، باهتتين ، متفرستين . وأطل الوجه من فتحة الباب ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنان مهشمة ، ثم مال برقبته المعروقة محييا . فأشارت له ماريا نيقولايفنا بمنديلها قائلة :

ـ لست هنا !

فظهرت على الرجل علامات الدهشة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مغتصبة ، وقال وكأنه ينتحب مقلدا الموسيقى « ليست » ، الذى كان فيما مضى يلعق قدميه :

ـ حسنا .. حسنا !

وقال سانين ، بعد أن انصرف الرجل :

ـ ما هذا الشبح المفزع ؟

ـ انه ناقد فسبادن .. ان شئت فهو أديب ، وان شئت استأجرته تابعا !.. ان مدير المسرح يدفع له أجرا ، فيثنى على كل ما يمثل على هذا المسرح ، ويقول انه رائع ممتاز ، رغم أن نفسه تفيض مرارة وحقدا ، ولكنه لا يجرؤ على أن يظهر ما فى نفسه . وهو لا يؤثر على اغتياب الناس شيئا ، وأخشى ما أخشاه أن يمضى الآن مناديا فى المسرح كله أننى هنا .. على كل حال ، ليفعل ما يحلو له .. لا يهمنى !

وأخذت الاوركسترا تعزف مقطوعة من نوع الفالس ، وما لبثت الستارة أن رفعت مرة أخرى . فعاد الصراخ

يتردد بين ارجاء المسرح ، مثلما كان من قبل ، بل بصورة أشد حدة وعنفا . فقالت ماريا نيقولايفنا ، وقد استرخت وتهالكت على أريكتها :

- حسنا ، ما دمت أسيرا ، وما دمت مضطرا الى مصاحبتى بدلا من الذهاب الى خطيبتك لتتأملها وتعجب بجمالها.. كلا.. كلا.. لاتحملق، ولا تغضب !.. اننى أفهمك ، وقد وعدتك بأن أدعك تمضى اليها متى أردت . وانما أريد الآن أن أفضى اليك باعترافات.. هل يهمك أن تعرف ما هى أحب الأشياء الى نفسى ؟

فقال سانين :

- الحرية !

فوضعت ماريا نيقولايفنا يدها على يد الشباب ، وقالت جادة ، بصوت تختلج فيه نبرة الصدق :

- **نعم ، يا ديمترى بافلوفتش .. الحرية .. الحرية قبل كل شىء ، وفوق كل شىء !** ولا يذهبن بك الظن الى اننى أفاخر بهذا .. كلا ، فليس فى هذا ما يفاخر به الانسان . ولكن الحقيقة هى أننى كذلك ، وأننى سأظل كذلك الى أن أموت. ويجب أن تصدق أننى قد عانيت فى طفولتى من عذاب العبودية الشىء الكثير . وقد ساهم مسيو جاستون ، الذى تولى تربيتى ، فى تفتيح عينى .. هل تفهم الآن لماذا تزوجت بوزلوف ؟.. **لقد تزوجته لأننى أستطيع معه أن أكون حرة ، حرة كالهواء ..** كنت أعرف قبل أن أتزوجه أننى سأكون مع زوج مثله « قوزاقية » حرة !

وصمتت ماريا نيقولايفنا ، ثم رمت مروحتها جانبا . وأردفت :

ـ كلمة أخرى أيضا .. اننى لا أكره التفكير ، فانما أوتى الانسان عقلا ليفكر . **ولكننى لا أفكر أبدا فى النتائج التى يمكن أن تنجم عن أعمالى .. اننى أنساق حين يجب الانسياق، فلا أهتم ، ولا أقلق ، وشعارى هو : « ليكن ما يكون ! » .** وفى هذه الحياة الدنيا ، لا حساب . أما فى الآخرة ، أما فى السماء (قالت ذلك وقد رفعت أصبعها نحو السقف) .. هه .. فليصنعوا بى ما يشاءون . فحين يحكمون على فى الآخرة ، لن أكون أنا نفسى .. هل تسمع ما أقول ؟ أم ترانى أضجرك كثيرا ؟

ـ مطلقا .. اننى أصغى اليك بغاية الاهتمام . ولكن ، لماذا تقولين لى هذا الكلام كله ؟

فاقتربت ماريا نيقولايفنا منه ، وقالت :

ـ ياله من سؤال ! .. أجاهل أنت أم متجاهل ؟

فرفع سانين رأسه . وأضافت هى تقول بصوت هادىء ، لكنه صوت لا يتفق والمعنى الذى يتبدى على وجهها :

ـ انما أقول لك هذا كله ، لأنك تعجبنى .. أجل ، لا تتظاهر بالدهشة .. وليس فى هذا ما يفرحنى ، فانه ليشق على أن أترك فى نفسك ـ بعد لقائنا ـ رأيا سيئا أو خاطئا ! .. ومن أجل ذلك ، قدتك الى هنا ، واختليت بك ، وحدثتك فى صدق .. أجل ، اننى لا أكذب ! ولاحظ أننى أعرف أنك تحب امرأة أخرى ، وأنك على أهبة الزواج ،

ومعنى هذا اننى لاأطمع منك فى شىء . ومع ذلك ، كانت تلك فرصة مواتية لأقول لك فيها : « ليكن ما يكون ! » .

ثم ضحكت ، لكنها سرعان ما انقطعت عن الضحك فجأة ، وسكتت ، ولم تحرك ساكنا ، وكأن كلماتها أدهشتها هى نفسها . . وفى عينيها اللتين كان يشيع فيهما المرح ، وتومض الجرأة عادة ، طاف شىء أشبه ما يكون بالحياة . . وبالأسى والحزن . فقال سانين لنفسه : « أيتها الافعى . . آه منك أيتها الأفعى الجميلة ! » . . وفجأة أمرته أن يناولها المنظار قائلة :

ـ اعطنى المنظار . . أريد أن أرى من على المسرح . . هل يعقل أن تكون الفتاة الاولى على هذا القدر الكبير من الدمامة ، الذى ألمحه من هنا ؟ لكأن الحاكم قد اختارها عمدا لغاية اخلاقية ، هى عدم استثارة الشباب !!

ودفع اليها سانين بالمنظار ، فتناولته ، ثم تلمست بأصابعها يديه فى حرارة . وقالت :

ـ لا تعبس . . اننى لا أحب أن يقيدنى أحد ، ولكننى لا أحب أيضا أن أقيد أحدا . . اننى أحب الحرية ، ولا أريد لغيرى الا ما أريده لنفسى . . والآن ابتعد قليلا ، ولنصغ الى المسرحية !

وراحت ماريا نيقولايفنا تتطلع الى المسرح من خلال المنظار ، ثم اقتدى بها سانين وكان هذا ـ وهو جالس الى جانبها فى عتمة المقصورة ـ يستنشق ، على غير ارادة منه ، حرارة الجسد العطر النضر . . ورغما عنه أيضا ، كان يفكر

فى كل ما أفضت به اليه خلال تلك السهرة ، وبخاصة خلال الدقائق الأخيرة !

- ٤٠ -

استغرقت المسرحية ساعة أخرى ، الا أن ماريا نيقولايفنا وسانين سرعان ما تولاهما السأم ، فعادا يتحدثان ، وجرى حديثهما على الوتيرة نفسها ، غير أن سانين أصبح - فى هذه المرة - أقل تحفظا ، وأكثر انطلاقا !

وكان سانين مستاء من نفسه ومن ماريا نيقولايفنا ، فحاول أن يبرهن لها على أن « نظرياتها » خاطئة ، وكأن ماريا نيقولايفنا كانت تعنيها «النظريات» فى كثير أو قليل . وقدسرها أن يدحض سانين حججها وأدلتها ، قائلة لنفسها : « ما دام يناقش ، فمعنى هذا انه استسلم أو أنه على وشك الاستسلام ، فأول الخضوع معارضة ، والسمكة متى عضت الصنارة ، فقدوقعت! » . ومضت ماريا نيقولايفنا تبتسم له ، ثم توافقه على آرائه ، وتستغرق فى التفكير ، ثم تستأنف الهجوم . وكان وجهاهما - أثناء ذلك - يتقاربان ، وأصبحت عينا سانين لا تتحولان عن عينى المرأة الشابة اللتين كانتا تتفرسان فيه ، وتجولان بنظراتهما فى ملامحه وقسمات وجهه .

وكان سانين يجيب على ذلك بابتسامة تفيض لباقة ولطف .. وقد أسعدها كثيرا أن يسترسل سانين فى أفكار عامة ، بعيدة كل البعد عن الشرف ، والواجب ، والوفاء ، وقدسية الحب والزواج . فمن الامور المعروفة أن مثل

هذه الآراء المجردة ، تعد بداية طيبة للغاية ، بل لعلها خير بداية على الاطلاق. ولعل ماريا نيقولايفنا لم تكن تبلغ أقصى درجات فتنتها وأغرائها الا حين كانت تبدو عليها سمات التواضع ، والرقة ، والخجل ، والحياء (ولا يعلم الا الله من أين كانت تضفى هذه الفضائل على طبيعتها القوية المسترجلة) .. ولو قد أتيح لسانين أن يراجع نفسه لحظة ، لاحتقر تلك المرأة ، لكن وقته لم يتسع لذلك ، فلم يستطع أن يفكر . سيما وان ماريا نيقولايفنا ما كانت لتضيع وقتها ، بعد أن استحوذ سانين على اعجابها ، وترك أثرا فى نفسها !

وانتهت المسرحية أخيرا . فطلبت ماريا نيقولايفنا الى سانين أن يضع لها شالها على كتفيها ، ثم وقفت ساكنة ، بينما راح الشاب يدثر بالحرير الفاخر كتفى رفيقته الفاتنين . فلما فرغ من مهمته ، أمسكت بذراعه ، ومضت . وما أن خرجت من باب المقصورة ، حتى أطلقت ـ على حين غرة ـ صرخة فشلت فى كبتها .. فقد كان «دنهوف» واقفا عند مدخل المقصورة ، كالشبح ، ومن ورائه كانت تطل قامة الناقد الادبى التعس ، الذى كان وجهه يلمع من فرط سمنته ، ويشرق فى فرح وخبث . وقال الضابط ، وهو يرتعد من غضب لم يستطع أن يخفيه فى صوته :

ـ هل تسمحين لى يا سيدتى بأن استدعى عربتك ؟

فأجابت :

ـ كلا ، شكرا .. أن تابعى يتولى هذه المهمة !

وأضـــافت تقول بصوت حاسم ، وهى تبتعــد بسرعة مع ســانين :

ـ أبق هنا !

فصاح دنهوف بصوت غاضب ، مخاطبا الناقد :

ـ اذهب الى الشيطان .. أتظل ورائى ، لا تفارقنى ؟

فقد كان دنهوف فى حاجة الى أن يصب جام غضــبه على شخص ما . ففمغم الناقد ، يجيب وهو يبتعد :

ـ حسنا .. حسنا ..

***

وكان خادم ماريا نيقولايفنا ينتظرها عند مدخل المسرح ، فان هى الا لحظة حتى تقدمت عربتها ، فدلفت اليها بسرعة ، ووثب فى اثرها ســانين . وما أن أغلق باب العــربة ، حتى انفجرت ماريا نيقولايفنا فى ضحكة مدوية . فسألها سانين :

ـ مم تضحكين ؟

ـ أوه .. معذرة .. لا تؤاخذنى ! .. **لقد خطر ببالى أن دنهوف قد يدعوك الى المبارزة مرة أخرى .. أليس هــذا مضحكا ؟**

ـ هل تربطك به علاقة وثيقة ؟

ـ تربطنى بهذا الصبى ؟ .. هه .. اننى أســتخدمه فى شراء بعض حاجياتى .. لا تقلق .. لا تنزعج !

ـ وفيم القلق ؟ ان أمره لا يهمنى قط !

وتنهدت ماريا نيقولايفنا ، ثم قالت :

ـ آه .. بالطبع .. أعرف هذا حق المعرفة . لكن اسمع ، مع ذلك ، يا ديمترى بافلوفتش ! لقد كنت لطيفا حتى الآن غاية اللطف ، فلا تخيب رجائى الأخير .. **سأسافر أنا الى باريس بعد ثلاثة أيام ، فهل توافق على أن تبقى معى حتى ذلك الحين ، ثم تعود الى فرنكفورت ؟..** لا يعلم الا الله متى نلتقى بعد ذلك !

ـ وما فائدة بقائى ؟

ـ هل تجيد ركوب الخيل ؟

ـ أجل .

ـ عظيم .. سنقوم غدا اذن بنزهة بالجياد ، خارج المدينة .. انها خير أنواع الجياد .. حتى اذا عدنا ، سوينا القضية ، التى جئت من أجلها ، وانتهى الامر .. ولا تقل أن هذه نزوة ، أو اننى مجنونة .. فقد أكون مجنونة ، ولكن قل لى أنك تقبل !

ثم أدارت رأسها نحو سانين . وكانت العربة مظلمة ، لكن بريق عينى ماريا نيقولايفنا كان يومض فى الظلام . فقال سانين وهو يتنهد :

ـ قبلت !

فهتفت ماريا نيقولايفنا ، وهى تقلد سانين فى تنهده :

ـ أراك تتنهد .. اسمع .. لقد امتلأت الكأس ، فلا بد من شربها . لكنك رجل لطيف .. انت شاب شهم ، وسأبر بوعدى . **هاك يدى أمدها اليك بلا قفاز ، يدى اليمنى التى أوقع بها الاتفاقات ، فشد عليها ، واطمئن اليها .. لست**

ادرى أى نوع من النساء انا ، ولكننى أعرف اننى ، فى ميدان الاعمال ، صادقة مستقيمة يمكن التعامل معى !

وتناول سانين يدها ، وبدون أن يدرى ماذا كان يفعل ، رفعها الى شفتيه . فسحبت ماريا نيقولايفنا يدها ببطء ، وسكتت ، وظلت صامتة الى أن وقفت العربة أمام الفندق. وحين همت بأن تنزل ، أحس سانين على خده بلمسة سريعة محرقة . فخال نفسه فى حلم . وما لبث أن سمعها تقول له :

ـ الى الغد !

ثم توجهت الى السلم الذى كان يضيئه الشمعدان المزين بالقصب المذهب ، والذى حمله البواب بمجرد أن لمح وصول العربة . وقبل أن تدلف الى المكان ، عادت تقول لسانين ، وقد غضت بصرها : « الى الغد ! » .

ولما وصل سانين الى غرفته ، وجد على منضدته رسالة من جيما . وما ان رأى الرسالة ، حتى أحس برعشة فى جسمه ، لكن سرعان ما ابتسم ليبدد ما اعتمل فى نفسه من مشاعر . . وكانت رسالة جيما لا تكاد تضم الا بضعة أسطر. وقد ابلغته فيها الفتاة انه قد أسعدها أن تعلم ان« الصفقة بدأت هذه البداية الطيبة » ، وراحت تحث سانين على التذرع بالصبر، مؤكدة له بأن الامور كلها ستجرى على خير مايرام ، وختمت رسالتها معبرة عن فرحتها بقرب لقائها بسانين !

ووجد الشاب الرسالة جافة بعض الشىء ، الا انه تناول ورقة وقلما ليكتب ردا . لكنه سرعان ما القى بهما جانبا ،

وهو يقول لنفسه : « فيم أكتب ما دمت عائدا فى الغد ؟ لقد آن لى أن أعود ! » .. ولم يلبث أن استلقى فى فراشه ، وحاول أن ينام بسرعة . ولو قد ظل سانين ساهرا ، لكان من الممكن أن يفكر فى جيما ، لكنه كان يخجل من مجرد التفكير فيها . فقد كان ضميره مضطربا وتفكيره مشتتا ، فكان لا يفتأ يطمئن نفسه بأن كل شىء سينتهى فى اليوم التالى ، وأنه سيتخلص من ماريا الى الابد ، وينسى جميع نزواتها واهوائها .. وهكذا شأن الرجال الضعاف دائما .. انهم يستخدمون العبارات القوية الطنانة ، حين يتحدثون الى أنفسهم ، فيقولون : « **ثم ان الأمر لن تكون له نتائج خطيرة !** » .

- ٤١ -

تلك كانت الخواطر التى دارت فى رأس سانين وهو مستلق فى فراشه . ولكن ما من أحد يعرف ما الذى فكر فيه سانين فى صباح اليوم التالى ، حين طرقت ماريا نيقولايفنا باب غرفته بقبضة سوطها المرجانية ، ثم طالعته عند العتبة ، وهى تمسك بيدها طرف ثوبها الازرق القاتم الذى ترتديه الفارسات ، وقد وضعت على جدائل شعرها الغزيرة قبعة من قبعات الرجال ، وعلى كتفها وشاحا شفافا متموجا ، وعلت شفتيها وعينيها ووجهها كله ، ابتسامة مثيرة فاتنة !

وصاحت فيه ماريا نيقولايفنا فى مرح :

ــ هل تأهبت ؟

فأسرع سانين يعقد أزرار سترته ، ثم تناول قبعته دون أن ينبس بكلمة واحدة . وألقت عليه ماريا نيقولايفنا نظرة فرحة ، وأومأت اليه برأسها ايماءة خفيفة ، ثم هرولت تهبط السلم راكضة . وتبعها الشاب مسرعا !

وكانت ثمة ثلاثة جياد تنتظر فى الشارع أمام باب الفندق. وكانت تتألف من فرس أصيلة شقراء ، لها منخران جافان ، وأسنان مكشوفة ، وعينان سوداوان جاحظتان ، وساقان كأنهما ساقا عنزة لشد ما انتابهما من ضمور . لكنها كانت فرسا وشيقة حارة كالنار ، وكانت هى التى ستمتطيها ماريا نيقولايفنا .. أما الحصان الثانى ، فكان قوى الشكيمة ، عريض المنكبين ، ثقيلا بعض الشيء ، لا تكسو جلده أية بقع ، وكان مخصصا لسانين . وكانت ثمة دابة ثالثة للسائس !

وامتطت ماريا نيقولايفنا صهوة فرسها فى خفة ، فأخذت الفرس تضرب الارض بحافريها ، وهى تدور حول نفسها ، رافعة ذيلها ، محركة ردفيها . لكن ماريا نيقولايفنا كانت فارسة ممتازة ، فاستطاعت أن تكبح جماح الفرس ، وأن تبقيها فى مكانها !

وكان لابد من توديع بوزلوف الذى كان قد خرج الى الشرفة بقلنسوته وسترته المفتوحة ، وراح يلوح بمنديله الحريرى ، وقد عبس وجهه وتجهم .. وسرعان ما امتطى سانين ظهر جواده بدوره . فهزت ماريا نيقولايفنا قبضة سوطها بحركة خفيفة ، تحية لزوجها ، ثم ضربت الفرس

ضربة هينة على عنقها المسطح المائل ، فشبت الفرس ، ثم مضت مقهورة ، رشيقة ، مرتعشة الجلد ، تعض اللجام ، وتنفث الهواء فى غضب .. وتبع سانين الفارسة ، وراح يتأمل قوامها الدقيق المرن ، الذى كان يهتز على صهوة الجواد منتصبا ثابتا . وما لبثت ماريا أن التفتت نحو سانين ، وأشارت اليه برأسها ، فاقترب منها ، وسارا متحاذيين . ثم قالت له هاتفة :

ـ ما أجمل هذا الجو ! .. دعنى أقل لك مرة أخيرة قبل أن نفترق ، انك انسان رائع ، ولن تندم على أنك صحبتنى فى هذه النزهة !

وكانت تقول هذا الكلام ، وهى تشفعه بحركات من رأسها ، كأنما لتعززه وتجعله أقوى نفاذا الى قلب صاحبها . وقد بلغ وجهها ، من فرط تعبيره عن السعادة ، أن أخذ سانين يقول لنفسه دهشا : « انه لوجه طفلة .. طفلة عاقلة للغاية ! » .. وظل الجوادان يسيران متقاربين بخطى وئيدة ، الى أن بلغا الحاجز ، فأخذا بعد ذلك يعدوان . وكان الجو جميلا ، والسماء سماء يوم من أيام الصيف ، وكانت الريح تلقى الفارسين مغمغمة ، وترسل فى الآذان صفيرا ممتعا . وشعر الفارسان براحة وسعادة . فقد كانت حياة فتية عارمة تتدفق فى كيانهما ، وهما يعدوان ذلك العدو الطليق القوى ، وأخذت نشوتهما تزداد وتتضاعف كلما مر بهما الوقت . وسرعان ما شدت ماريا نيقولايفنا عنان فرسها ، وعادت تسير بخطى وئيدة ، فحذا سانين حذوها . واذ ذاك هتفت

الفارسة ، وهى تتنهد تنهدا عميقا سعيدا :

ـ هكذا تستحق الحياة أن نحياها !.. ما أروع أن يحقق المرء ما كان يحسبه مستحيلا !

ثم مرت بيدها على عنقها ، وأضافت :

ـ ان المرء ليصبح عندئذ أطيب نفسا .. انني لأشعر بأنني صافية القلب للغاية في هذه اللحظة ، وأن في وسعي أن أقبل العالم بأسره .. كلا ، ليس العالم بأسره ، فهذا شخص ما أظن أنني أستطيع تقبيله !

واشارت بطرف سوطها الى رجل عجوز كان يرتدى أسمالا رثة ، ويسير على حافة الطريق ، وقالت :

ـ ولكنني أريد أن يكون هو الآخر سعيدا ..أيها الشيخ ، خذ هذا لك !

ثم القت بكيس نقودها بين قدمى العجوز . وسقط الكيس الصغير ثقيلا على الطريق ، فأحدث سقوطه صوتا جافا . فدهش العجوز المسكين ، وتوقف . فانفجرت ماريا نيقولايفنا ضاحكة ، وهمزت فرسها ، فانطلقت هذه تركض بها سريعا . فلما أدركها سانين ، سألها :

ـ أأنت مرحة دائما هكذا ، كلما ركبت خيلا ؟

فجذبت ماريا نيقولايفنا زمام فرسها ، فتوقفت هذه عن السير . ولم تكن توقف فرسها أبدا بغير هذه الطريقة . وقالت :

ـ انما أردت أن أفلت من الشكر .. ان الشكر يفسد كل شيء ! وأنا لم أقذف اليه بالمال من أجله ، بل من أجلي

.. لم أفعل هذا لكى ابعث السرور فى نفسه ، وانما لكى ارضى نفسى . فعلام يشكرنى ؟ .. ماذا سألتنى ؟ اننى لم أسمع !

– انمـا أردت أن أعرف لماذا أنت مرحة اليوم كل هـذا المرح ؟

ترى ألم تسمع ماريا نيقولايفنا السؤال ؟ أم أنها لم تشأ أن تجيب عليه ؟ .. فقد غيرت موضوع الحديث قائلة :

– هل تعرف ؟ .. أن هذا السائس الذى يتبعنا يضايقنى ، فكيف السبيل الى التخلص منه ؟

وسحبت من جيبها دفترا صغيرا وأردفت :

– سأعطيه رسالة ليمضى بها الى المدينة .. ولكن ، كلا .. لقد وجدت الوسيلة .. أليس حانة ، هـذا المكان الذى أمامنا ؟

وتطلع سانين الى المكان الذى أشارت اليه ، وقال :

– يخيل الى أنه حانة فعلا !

– عظيم .. سأقول له أن يبقى هناك ، وأن يشرب البيرة الى أن نعود !

– ولكن ماذا عسى أن ينصرف اليه ذهنه ؟

– لا شىء .. سيشرب البيرة وكفى .. هيا يا سانين !

وكانت هذه أول مرة تخاطبه فيها ماريا نيقولايفنا باسم ((سانين)) مجردا . وقـد خاطبته على هـذا النحو أثنـاء الطريق ، والخيل تعدو . فلما وصل الفارسان الى الحانة ، نادت ماريا نيقولايفنا التابع ، وأصدرت اليه أوامرها . فما ان سمع التابع ما امرته به – وكان رجلا انجليزى الاصل ،

حار المزاج — حتى رفع يده الى حافة قبعته دون أن ينطق بكلمة ، ثم وثب عن حصانه ، وجره من عنانه . فلما انصرف صاحت ماريا نيقولايفنا ، مخاطبة سانين :

— نحن الآن طائران طليقان ، فالى أين نذهب ؟ الى الشمال ؟ الى الجنوب ؟ الى الغرب ؟ الى الشرق ؟ أنظر .. انني كملك المجر عند تتويجه (وأشارت بطرف سوطها الى الاتجاهات الأربعة) .. الكون كله لنا .. هل ترى هذه الروابى ؟ هذه الغابات هناك ، فوق الجبال .. ان فوق الجبال توجد الحرية .. هناك ، فى الأعالى !

وانحرفت ماريا نيقولايفنا عن الطريق ، وانعطفت بفرسها مسرعة فى درب ضيق لا يكاد يكون ممهدا ، ويبدو أنه كان يؤدى الى الجبل حقا . واندفع سانين فى اثرها !

— ٤٢ —

لم يلبث الدرب الضيق أن استحال الى ممر لا تكاد تراه العين ، ثم اختفى تماما وراء احدى الحفر . وكان من رأى سانين أن يرجعا أدراجهما ، لكن ماريا نيقولايفنا هتفت تقول :

— بل نمضى الى أعلى الجبل .. نمضى الى أعلى الجبل قدما من خلال الحقول ، كما تطير الطيور !

ولكزت حصانها ، فوثب فوق الحفرة . واقتفى أثرها سانين .. وكان يمتد فى الجانب الآخر أحد المراعى ، وكان جافا يابسا فى أوله ، رطبا تنتشر فيه المستنقعات بعد ذلك ، فقد كانت المياه هناك تنبثق من كل مكان ، مكونة فى بعض

المواضع غدرانا وبركا . وتعمدت ماريا نيقولايفنا أن تمضى بفرسها الى وسط الغدران ، وأخذت هنالك تضحك صائحة :

ـ ها نحن قد أصبحنا كالتلاميذ الهاربين من المدرسة .. هل مارست الصيد فى فترة مياه الربيع ؟

ـ طبعا !

ـ لقد كان لى عم يحب الصيد حبا جما . وكنت أصحبه كثيراً فى الربيع .. الا ما كان أروع ذلك ! .. وها نحن اليوم نبتل بمياه الربيع .. انى لأرى أنك روسى حقا ، ومع ذلك تريد أن تتزوج من ايطالية .. على كل حال ، هذا شأنك .. حذار ، هذه حفرة أخرى !

ووثب الفرس فوق الحفرة ، فطارت قبعة ماريا نيقولايفنا . وانحلت جدائل شعرها ، فانسدلت على ظهرها . وأراد سانين أن يقفز من فوق حصانه ، لكن الفارسة أمسكت به قائلة :

ـ بل سأحضرها أنا !

ثم مالت ميلا شديدا الى أسفل ، دون أن تترك صهوة الفرس ، ومدت قبضة سوطها ، فعلقت بها طرف القبعة ، ثم حملتها ، ووضعتها على رأسها دون أن ترفع شعرها ، واستأنفت العدو وهى تصيح فرحة . وكان سانين يعدو بحصانه الى جانب ماريا نيقولايفنا ، ويثب معها فوق الحفر والأسيجة والسواقى ، ويصعد ويهبط ، متسلقا الجبال ، هابطا المنحدرات ، دون أن تفارق نظراته وجه رفيقته !

وكان وجه ماريا مشرقا متألقا ، وكانت عيناها متألقتين ، شرهتين ، صافيتين ، ضاريتين ، وشفتاها تنفرجان ، وأنفها يختلج مستنشقا الهواء فى نهم . وكانت ماريا نيقولايفنا تتطلع أمامها ، معانقة بنظراتها الافق كله ، وكأن روحها أرادت أن تلتهم كل ما كانت تراه ، وتمتلك الارض ، والسماء ، والشمس ، والهواء . وما كان يضايقها الا شىء واحد هو ندرة الحواجز والعقبات فى الطريق ، فقد كانت تود لو أحرزت انتصارات أخرى عديدة . وما لبثت ان قالت لسانين :

ـ سانين .. ان هذا ليشبه كل الشبه ما فى قصة « لنيور » لمؤلفها بورجر (١) .. ولكنك لست ميتا ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحس بأننى أحيا .. أحيا !

ولم تكن ماريا نيقولايفنا فى تلك اللحظات مجرد فارسة تعدو على صهوة جوادها ، بل كانت قد صارت أشبه بحورية من حوريات الأساطير ، وهى تشق بفرسها الارض الطيعة التى افتتنت بها وانبهرت بجمالها !

وأخيرا أوقفت ماريا نيقولايفنا فرسها التى بللها العرق ولطخها الطين . وكانت الفرس تترنح من تحتها ، وكان حصان سانين القوى الثقيل يلهث اعياء . وقالت ماريا نيقولا يفنا تهمس نشوانه :

ـ ان هذا لجميل ، أليس كذلك ؟

فقال سانين فى حماسة :

---

(١) بورجر : شاعر ألمانى عاش فى القرن الثامن عشر .

ـ رائع ..

وكان دم سانين يغلى أيضا . فعادت تقول له :

ـ انتظر .. لم ينته كل شىء !

ومدت اليه يدها ، وكان قفازها قد تمزق . وأردفت :

ـ قلت لك اننى سأمضى بك الى الغابة هناك ، فى الأعالى ، فى الأعالى .. فى الجبل !

وكان الجبل ينتصب هناك شامخا ، على مسافة مائتى متر من الفارسين المنطلقين . واستطردت تقول :

ـ انظر ، هذا هو الطريق ، فلنسترح قليلا ، ثم فلنمضى الى هناك .. ولكننا سنسير الهوينا ، اذ يجب أن ندع للخيل فرصة لأن تتنفس !

ومضيا فى طريقهما . وبحركة من يديها ، ردت جدائل شعرها الى الخلف . ونظرت الى قفازيها ، ثم خلعتهما وهى تقول :

ـ لقد تشبعت يداى برائحة الجلد ، ولكن لا بأس !

وكانت تبتسم ، وكان سانين يبتسم لها هو الآخر . وسألته فجأة :

ـ ما عمرك ؟

ـ اثنتان وعشرون سنة .

ـ أحقا ؟ هذا غريب .. أنا أيضا عمرى اثنتان وعشرون سنة .. ما أجملها من سن ! .. لو أضفت عمر كل منا الى

عمر الآخر ، لظللنا بعيدين عن الشيخوخة .. ان الجو حار .. لقد احمر وجهى ، أليس كذلك ؟

— وصار بلون أزهار شقائق النعمان !

وجففت وجهها بمنديلها ، وقالت :

— سيتلطف الجو متى أصبحنا فى ظل الغابة .. انها غابة قديمة ، وهى عندى كصديق قديم .. هل لك أصدقاء ؟

— عدد قليل منهم .. وانما أصدقاء حقيقيون لا !

— أما أنا ، فلى أصدقاء حقيقيون .. هذه الفرس مثلا .. انها تحملنى على ظهرها فى رفق .. ما أعظم ما أشعر بالراحة هنا ! .. أيمكن أن أسافر الى باريس بعد غد ؟

— هل صحيح أنك ستسافرين ؟

— طبعاً ، وستسافر أنت الى فرنكفورت ، أليس كذلك ؟

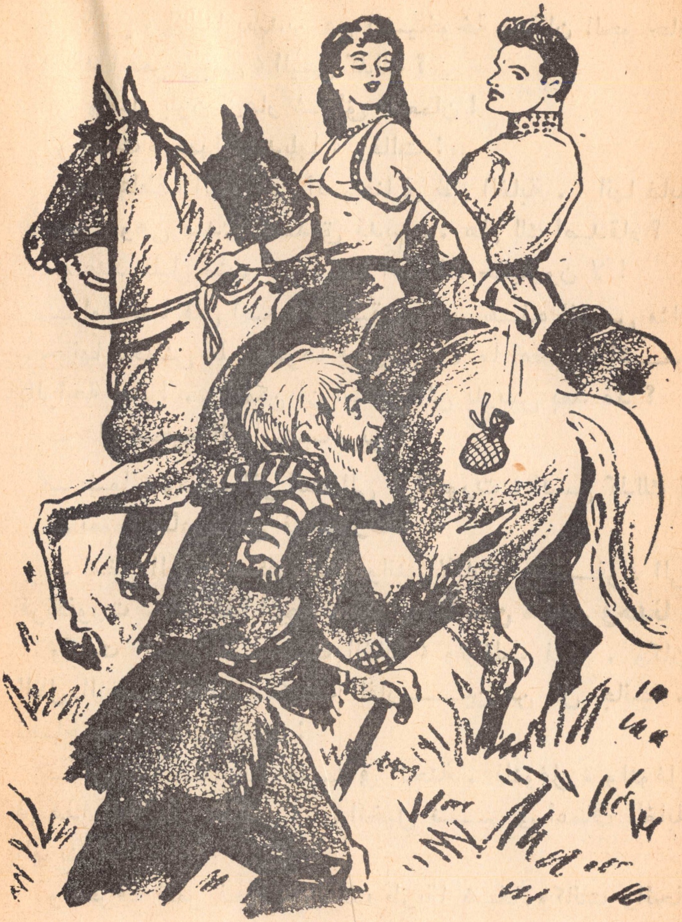
— نعم ، سأعود الى فرنكفورت !

— امض الى فرنكفورت ، واننى لأبارك سفرك الى فرنكفورت . أما هذا اليوم ، فهو يومنا نحن ، نحن وحدنا !

وكانت الخيل قد بلغت الغابة ، وتوغلت فيها . وكان الظل الرطب اللذيذ يكتنف الفارسين من كل جانب . فصاحت ماريا نيقولايفنا :

— ان المرء هنا يخال نفسه فى الجنة . فلنوغل ، ولنوغل فى هذا الظل .. سانين ، ان الخيل تسير فى أعماق الغابة الهوينا !

وانحرف الممر فجأة ، وسلك طريقا ضيقا . وكانت رائحة الخنشار ، والصنوبر ، والسماد تتصاعد من الارض . وكانت



« .. ولكننى أريد أن يكون هو الآخر سعيدا .. أيها الشيخ ، خذ هذا لك ! »

شقوق الصخور السمراء تنشرجوا رطبا ينفذ الى الاجسام. وعلى جانبى الطريق ، كانت تقوم آكام مفطاة بطحالب خضراء . وصاحت ماريا نيقولايفنا قائلة :

ـ فلنقف ! أريد أن أستريح على هذه الخميلة. . ساعدنى على الهبوط من فوق الحصان .

فترجل سانين ، وهرع نحوها ، فاستندت الى كتفيه ، ووثبت بسرعة الى الارض ، ثم جلست على ربوة يغطيها الطحلب. ووقف سانين أمامها ، ممسكا بزمامى الحصانين. فرفعت ماريا نيقولايفنا عينيها نحوه ، وقالت :

ـ سانين ، هل تستطيع أن تنسى ؟

وما ان قالت له ذلك ، حتى تذكر ما جرى بينهما بالأمس فى العربة ، فسألها :

ـ أهذا سؤال ، أم لوم ؟

ـ ما لمت أحدا فى حياتى .. ولكن هل تؤمن بالسحر ؟

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى هل تؤمن بأن الانسان يستطيع أن يسحر احدا بالرقية ، كما تحفل بذكر ذلك الأغانى التى ينشدها الفلاحون فى بلادنا ؟

ـ آه .. فهمت !

ـ أما أنا فأومن بذلك ، وأنت ؟

ـ السحر .. الرقية.. ان كل شىء ممكن فى هذه الدنيا ! .. لقد كنت فى الماضى لا أؤمن بشىء من ذلك ، أما الآن فأصبحت أؤمن .. أننى الآن لا أكاد أعرف نفسى !

وفكرت ماريا نيقولايفنا لحظة ، ثم نظرت فيما حولها ، وقالت :

– يخيل الى أننى أعرف هذا المكان .. سانين ، أنظر ! هل هناك صليب أحمر ، على جذع تلك السنديانة الكبيرة ؟ .. أهو هناك ؟

واقترب سانين من الشجرة . ثم قال :

– نعم ، ان الصليب ههنا !

فابتسمت ماريا نيقولايفنا ، وهتفت :

– الآن عرفت أين نحن .. اننا لم نبتعد عن طريقنا .. ولكن من هذا الذى يحدث صوتا هناك ؟ أهو حطاب ؟

ونظر سانين الى الجهة التى كان يأتى منها الصوت . وقال :

– أجل ، انه رجل يقطع الاغصان الميتة !

– أريد أن أعيد تصفيف شعرى .. ترى ماذا عسى أن يقول أى شخص يرانى ؟

ثم نزعت قبعتها عن رأسها ، وأخذت تصفف جدائلها الطويلة فى جد ووقار ، دون أن تنطق بكلمة واحدة . وظل سانين واقفا أمامها . وكانت مفاتن جسد المرأة الشابة تبرز واضحة تحت ثنايا سترتها القاتمة ، التى علقت بها وريقات الطحلب هنا وهناك .. وفجأة أجفل أحد الحصانين من وراء سانين ، فارتعش هذا وانتفض . فقد كان كل شىء مضطربا أمام عينيه ، وكانت أعصابه متوترة وكأنها أوتار مشدودة .. **لقد صدق حين قال أنه اصبح لا يعرف نفسه . فقد**

كان يقف مسحورا ، وقد استبدت بكيانه كله فكرة واحدة ورغبة واحدة !

ورمقته ماريا نيقولايفنا بنظرة حادة ، ثم قالت وهى تضع قبعتها على رأسها :

ـ الآن أصبح هندامى سليما لا غبار عليه .. لماذا تظل واقفا ؟ اجلس هنا ! .. كلا ، انتظر .. لا تبتعد .. ما هذا الذى نسمعه ؟

فقد دوى فى تلك اللحظة صوت عنيف ، هز ارجاء الغابة هزا . فسألت ماريا رفيقها :

ـ أهو رعد ؟

ـ لكأنه رعد !

ـ اننى اذن لفى عيد حقا .. لقد كان الرعد هو ما ينقصنا !

ودوى الصوت العنيف مرة أخرى ، وتردد صداه طويلا . فعادت تقول :

ـ مرحى .. عظيم .. هل تذكر ؟ لقد حدثتك بالأمس عن الانيادة .. لقد فوجئا ، هما أيضا ، بالعاصفة فى الغابة ! .. يجب علينا أن نبحث عن ملجأ نلوذ به !

ونهضت واثبة ، وهى تقول :

ـ الى بفرسى .. ناولنى يدك .. اننى لست ثقيلة !

وقفزت فوق صهوة فرسها ، فى خفة العصفور . وامتطى سانين حصانه بدوره ، ثم سألها بصوت متردد :

ـ أتريدين العودة ؟

ـ العودة ؟!

قالت ذلك وهى تضغط على مقاطع الكلمة ، وتجمع طرفى عنان الفرس ، ثم استطردت تقول :

ـ اتبعنى !

وعادت الى الطريق من ناحية الصليب الاحمر ، وهبطت الى درب أجوف ، ثم وصلت الى مفرق طرق ، فانعطفت يمينا ، وأخذت تصعد الرابية من جديد. وكانت تعرف الى أين هى ذاهبة ، فمضت توغل فى الغابة الكثيفة ، وتتقدم فى سيرها فى عزم وقوة ، دون أن تنبس بكلمة واحدة ، أو أن تلتفت الى الوراء ، حيث كان يسير سانين طائعا مستسلما ، مفعم القلب ، مسلوب الارادة . وأخذ المطر يهطل رذاذا . فاستحثت ماريا نيقولايفنا خطى فرسها ، وحذا سانين حذوها !

وأخيرا ، ومن خلال خضرة أشجار الصنوبر القاتمة ، لمح سانين كوخا فقيرا فى ظل صخرة صهباء ، وكان باب الكوخ مصنوعا من أغصان متشابكة . ودفعت ماريا نيقولايفنا فرسها الى شق طريقه بين أشجار الصنوبر ، ثم وثبت الى الارض ، وهرعت نحو باب الكوخ . وهناك ، همست تقول ، وهى تلتفت الى سانين : ((**انياد !**)) .

***

بعد أربع ساعات ، كانت ماريا نيقولايفنا عائدة الى فندقها بفسبادن ، يصحبها سانين ، والتابع النائم على ظهر حصانه . وهب بوزلوف الى لقاء امرأته ، وهو يمسك

بالرسالة التى كتبهاالى الوكيل . فلما أنعم النظر فى وجه ماريا نيقولايفنا ، قال لها بصوت خافت ، وقد بدت على وجهه علامات الاستياء :

– يظهر أننى فقدت الرهان ، أليس كذلك ؟

فلم تجبه زوجته الا بهزة من كتفيها !

وفى ذلك اليوم نفسه ، وبعد ساعتين ، كان سانين يقف أمام ماريا نيقولايفنا فى غرفتها ، معدوم الحيلة ، مسلوب الارادة . وقالت له :

– والآن، الى أين تذهب؟ ألى باريس ، أم ألى فرنكفورت؟

– أذهب الى حيث تذهبين، ولن أتركك الا يوم تطردينني !

قال ذلك منهارا ، وهو يقبل يدى المرأة التى سيطرت عليه ، واستبدت به . فسحبت ماريا نيقولايفنا يديها ، ووضعتهما على رأس الشاب ، وأخذت تداعب شعره ، وتعبث به بأناملها . ثم ما لبثت أن انتصبت قائمة ، وقد علت شفتيها ابتسامة ظافرة . وكانت عيناها واسعتين صافيتين ، تبدوان بيضاويتى الشكل ، وكانتا لا تعبران الا عن انتصار وحشى ، لا يرحم . ولعلهما كانتا تشبهان اذ ذاك عينى الصقر ، حين ينشب مخالبه فى فريسته !

– ٤٣ –

طافت تلك الذكريات كلها فى خيال سانين ، حين وجد الصليب الصغير المصنوع من العقيق ، وهو يرتب أوراقه وسط سكون غرفته. وأخذت تلك الأحداث المتلاحقة تترابط

فى ذاكرته ترابطا واضحا . فلما تصور نفسه بعد ذلك ذليلا، يتضرع الى الاميرة بوزلوف ، ويرتمى عند قدميها ، استيقظت فى ذهنه أيام عبوديته لها ، فأراد أن يتحول عن تلك الذكريات، والا يستعيدها مرة أخرى . لا لأن الذاكرة كانت تعوزه ، على العكس .. لقد كانت تصور له تصويرا دقيقا كل ما حدث بعد ذلك اليوم. **لكن الشعور بالعار كان يخنقه خنقا ، وهو رغم السنين العديدة التى انقضت على تلك الأحداث ، كان ما يزال يخشى أن يعود احتقاره لنفسه ، فيسمم جميع مشاعره ، اذا هو لم يرغم ذاكرته على النسيان** . ولكن كيف كان السبيل الى النسيان ؟ .. وكيف تنمحى من خياله تلك الأحداث كلها ؟ !

لقد راح يتذكر الرسالة السخيفة الكاذبة المتباكية ، التى أرسلها الى جيما ، ولم يتلق ردا عنها..وكيف كان يستطيع أن يراها ، أو أن يعود الى بيتها ، بعد أن خانها على ذلك النحو المخزى المشين ؟ ! .. لقد بقى له من الضمير والشرف ما منعه من الاقدام على ذلك . ثم انه كان قد فقد كل ثقة بنفسه ، وكل احترام لذاته ، حتى لقد أصبح رجلا لا يصون ذمة ، ولا يرعى عهدا ..

وتذكر سانين أيضا أنه أرسل خادم أسرة بوزلوف الى فرنكفورت ، ليجيئه بمتاعه . فقد كان يخاف أن يمضى بنفسه الى هناك ، ولم يكن يشغل باله الا شىء واحد ، هو أن يرحل بأقصى سرعة الى باريس !

وتذكر انه ـ عملا بأوامر ماريا نيقولايفنا ـ أخذ يتملق

زوجها ، ويداهن دنهوف الذى كان يحمل فى اصبعه خاتما من الحديد ، كالخاتم الذى أهدته اليه ماريا نيقولايفنا .. ثم وافاته ذكريات أشد سوادا ، وأدعى الى الخجل والشعور بالعار ..

ففى ذات صباح ، دخل عليه خادم الفندق ، ودفع اليه ببطاقة ، قرأ عليها اسم « بانتاليون شيباتولا ، المغنى الايطالى فى قصر صاحب السمو الملكى دوق مودين » . فرفض سانين أن يلقاه ، لكنه لم يستطع أن يتحاشاه فى دهليز الفندق . فقد ظهر له هنالك ، بوجهه الحانق ، ذى الذؤابة الشعثاء ، والعينين المتقدتين كأنهما من جمر ، وسمع صوته يردد ، بالايطالية ، كلمات مروعة : « نذل .. جبان .. خائن .. وغد .. » ، فأغمض سانين عينيه ، وهز رأسه ، ونظر يمينا ثم يسارا ، وكأنما خشى أن يكون هناك من سمع كلمات الايطالى ..

ومرة أخرى ، وبينما كان سانين يجلس جلسة غير مريحة على المقعد الامامى الضيق من العربة ، ووراءه ، على الوسائد الوثيرة ، تجلس ماريا نيقولايفنا وزوجها بوزلوف فى راحة واسترخاء ، والعربة تنطلق من فسبادن فى طريقها الى باريس ، لمحه مرة أخرى .. كان بوزلوف يلتهم احدى ثمار الكمثرى التى قشرها له سانين ، وكانت ماريا نيقولايفنا تنظر اليه نظرتها الى عبد ذليل ، وتبتسم تلك الابتسامة التى بات يعرفها ، ابتسامة المالك السيد .. وفى ركن من الشارع ، عند أطراف المدينة ، كان يقف بانتاليون .. أجل ، لقد كان

بانتاليون ، ومعه ايمليو ، الفتى الصغير المتحمس الذى كان يحب سانين حبا جما لا يعرف حدودا . لقد كان هذا القلب الفتى يرى فيه بالأمس بطلا، ويعده مثله الأعلى . أما اليوم ، فان وجهه الشاحب الجميل ، الذى بلغ من جماله أنه لفت نظر ماريا نيقولايفنا ، فأطلت من نافذة العربة لتنظر اليه ، ذلك الوجه كان يفيض اليوم حنقا ، وسخطا ، واحتقارا ، وعيناه اللتان تشبهان عينى « أخربيين » شبها كبيرا كانتا ترشقان الآن سانين بنظراتهما ، والشفتان تنقبضان ثم تنفرجان لتقذفا بالشتائم .. وكان بانتاليون يمد يده مشيرا الى تارتاجليا .. لقد جاء تارتاجليا أيضا ، وراح ينبح فى وجه سانين ، فاذا بنباح الكلب الامين ينفذ فى أذنى سانين سبابا لا يحتمل ، واهانة لا تطاق !

وتذكر حياته فى باريس ، وما عانى فيها من الوان الذل والهوان ، وما كابد من عذاب العبودية . فلقد كان هنالك عبدا لا يحق له أن يغار ، ولا أن يتذمر ، وانما عرضة لأن ينبذ ذات يوم كما ينبذ الثوب البالى !

وتذكر أيضا عودته الى الوطن ، والحياة المنملة الفارغة ، التى حفلت بتوافه الأمور وسفاسفها ، كما تذكر الندم المرير الذى لم يجده شيئا ، والنسيان الممض الذى لم يجده شيئا كذلك !

كان ذلك هو العقاب الخفى الذى لا تعقبه راحة ، والألم الدفين الذى لا يرجى منه شفاء .. كان ذلك سدادا لدين لا يعرف المدين مقداره .. وقد امتلأ الكيل حتى طفح ..

اذ كيف حدث أن الصليب الصغير الذى أهدته اياه جيما كان ما يزال هناك ؟ ولماذا لم يرده سانين الى صاحبته ؟ .. ولماذا لم يعثر عليه قبل الآن ؟

***

وظل سانين غارقا فى تأملاته مدة طويلة ، لكنه – رغم الخبرة التى حصل عليها بتقدم السن – لم يستطع أن يدرك كيف أمكنه أن يهجر جيما ، التى تدله فى هواها ، وهام بها ذلك الهيام القوى العنيف ، من أجل امرأة لم يشعر نحوها بالحب فى يوم من الايام !

وما كان أشد الدهشة التى شعر بها أصدقاء سانين ومعارفه ، حين أنبأهم فى اليوم التالى أنه مسافر الى الخارج .. فقد حيرهم النبأ ، وأثار تساؤلهم . ذلك أن سانين كان يغادر (بطرسبرج) فى منتصف الشتاء ، وكان قد أتم لفوره اعداد بيت جميل مريح ، كما اشترى تذكرة لحضور حفلة الاوبرا الايطالية التى كانت ستغنى فيها « باتى » نفسها ، مغنية الاوبرا المشهورة !

وقد راح أصدقاء سانين يتساءلون عن الأسباب التى دفعته الى السفر ، لكن الناس ليس لهم من وقتهم مايقفونه على شئون غيرهم ، فلما جاء اليوم الذى سافر فيه سانين الى الخارج ، لم يصحبه الى المحطة الا شخص واحد ، هو حائكه الفرنسى ، وقد رافقه الى المحطة ، أملا فى تقاضى مبلغ كان سانين مدينا له به ، وهو أجرة تفصيل رداء من المخمل الأسود الأنيق !

- ٤٤ -

لقد أنبأ سانين أصدقاءه بأنه مسافر الى الخارج ، لكنه لم يذكر لهم الجهة التى كان سيقصدها . وقد مضى رأسا الى (فرنكفورت) . وبعد أربعة أيام من السفر ، حط رحاله فى تلك المدينة التى لم يعد اليها منذ عام ١٨٤٠ . وكان فندق (البجعة البيضاء) ما يزال حيث هو ، لكنه لم يعد فندقا من فنادق الدرجة الاولى . واذا كان شارع (زايل) - وهو الشارع الرئيسى بفرنكفورت - لم يكد يتغير الا قليلا ، فان الشارع الذى كان يقع فيه حانوت روزيلى لم يبق له من أثر !

وطاف سانين ، كالتائه ، فى تلك الأمكنة التى ألفها فى الماضى ، وأصبح الآن لا يكاد يتعرف فيها على شىء . فلقد حلت محل البيوت القديمة ، أبنية عالية وقصور أنيقة . بل ان الحديقة التى كان سانين قد تواعد مع جيما على اللقاء فيها ، قد اتسعت ، وبلغت من الاتساع حدا جعل سانين يشك فى انها كانت عين الحديقة التى شهدت لقاءه مع حبيبته ! .. وانتابته الحيرة والشعور بالضياع ، اذ لم يعرف الى من يتجه وبمن يستعين ، بعد أن انقضت على ذلك العهد ثلاثون عاما ، سيما وان الاشخاص الذين سألهم سانين ، لم يكونوا قد سمعوا يوما باسم روزيلى . وقد نصحه مدير الفندق أن يذهب الى المكتبة العامة ، وأن يقلب هنالك الجرائد القديمة . ولكن أنى لتلك الجرائد أن تمده بالمعلومات التى كان يبحث عنها . ولم يستطع احد أن يخبره بشىء . فلما يئس ، سأل عن السيد كلوبر !

وكان الجميع يعرفون السيد كلوبر ، ولكن ما علمه سانين عنه ما كان ليمده بما يريد معرفته . فلقد قيل له أن ذلك البائع الانيق قد أثرى ثراء فاحشا ، ثم أخذ يمارس أعمالا تجارية غير مشروعة ، فأفلس ، وما لبث أن قضى نحبه فى السجن . . على أن سانين لم يكن ليعبأ بتلك المعلومات كلها . حتى اذا وقع ذات يوم — عرضا ، فى دفتر التليفون — على اسم فون دنهوف ، الضابط المتقاعد ، أدرك أن كل ما قام به قبل ذلك من بحث، كان يعوزه التروى وحسن التدبير . وان هى الا لحظة ، حتى كانت احدى العربات تمضى به الى العنوان الذى عثر عليه فى دفتر التليفون . وراح يسائل نفسه فى الطريق : ترى هل دنهوف هذا كان ذلك الضابط نفسه الذى عرفته فيما مضى ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فهل كان فى وسعه أن يخبرنى بشىء عما آلت اليه أسرة روزيلى ؟ . . لكنه أخذ يعشم نفسه ويمنيها بالحصول على بغيته . .

ووجد سانين الضابط فون دنهوف فى بيته ، فلم يلبث أن عرف فى ذلك الرجل الاشيب خصمه القديم . وقد عرفه دنهوف بدوره ، وسره أن يراه ، فقد كان ذلك يذكره بأيام شبابه ومغامراته . . **واستطاع سانين أن يعلم منه أن أسرة روزيلى قدهاجرت منذ مدة طويلة الى أمريكا ، حيث استقرت فى (نيويورك) ، وأن جيما قد تزوجت من أحد التجار ، وأنه — أى دنهوف — يعرف تاجرا بفرنكفورت ، لعله كان يعرف عنوان زوج جيما ، لما كان يربطه بأمريكا من صلات ومصالح بحكم عمله .**

فرجا سانين الضابط دنهوف أن يحصل له على العنوان ، ومن حسن الحظ أن خصمه القديم استطاع ان يجيئه به ، وكان : « **السيد يرمياه سلوكوم ، نيويورك ، برودواى ، رقم ٥٠١** » . لكن العنوان كان يرجع الى عام ١٨٦٣ ، فصاح دنهوف يقول :

ـ نرجو أن تكون حسناء فرنكفورت ما تزال على قيد الحياة ، وما تزال تقيم بنيويورك !

ثم استطرد مخفضا صوته :

ـ بالمناسبة .. تلك السيدة الروسية .. أنت تعرف من أقصد .. تلك السيدة الروسية التى كانت فى فسبادن .. السيدة بو .. بوزلوف ، أما تزال على قيد الحياة ؟

فأجابه سانين :

ـ كلا ، لقد ماتت منذ مدة طويلة !

فأطرق دنهوف ، لكنه حين رأى سانين يشيح بوجهه ويعبس ، لم يضف شيئا آخر ، ولاذ بالصمت !

***

وفى ذلك اليوم نفسه ، بعث سانين برسالة الى السيدة « جيما سلوكوم » ، بنيويورك ، يخبرها فيها انه يكتب اليها من فرنكفورت ، وانه جاء الى تلك المدينة ليراها ، عالما حق العلم أنه لا يحق له أن ينتظر منها ردا على هذه الرسالة ، لأنه لا يستحق غفرانها . وكل ما يأمله ، أن تكون قد نسيت مجرد وجوده ، وهى تتقلب بين أعطاف السعادة .. **وأضاف**

الى ذلك ، أنه قرر فجاة أن يكتب اليها ، على أثر ظرف ايقظ فى نفسه صور الماضى بقوة لم يستطع لها دفعا ..

وراح يصف لجيما حياة العزلة التى كان يعيشها ، بلا أسرة ولا سعادة ، وناشدها الا تسىء الظن فى البواعث التى دفعته الى كتابة هذه الرسالة . فانه لا يستطيع أن يموت ، وهو يعلم أن الاثم الذى ارتكبه ، وعانى من التفكير فيه ما عانى من ضروب العذاب ، لم يغتفر .. وطفق يتوسل اليها أن تخبره بكلمتين عن حالتها فى الوطن الذى اختارته لنفسها . واضاف يقول ، وهو يختم رسالته :

« ان كلمة واحدة تصلنى منك ، لهى عمل طيب لايستغرب أن يصدر عن روحك النبيلة ، وساظل أشكرك عليه الى أن الفظ آخر أنفاسى .. أنا الآن فى فندق « البجعة البيضاء » بفرنكفورت ، وسانتظر ردك هنا حتى آخر الربيع » .

وأرسل سانين خطابه ، وراح ينتظر . وقد لبث فى الفندق ستة أسابيع ، لم يبارح غرفته خلالها ، ولا لقى أحدا . وسره أن أصدقاءه فى روسيا لا يستطيعون أن يكتبوا اليه ، لجهلهم بعنوانه ، وبذلك يكون فى وسعه ، متى وصلته أية رسالة ، أن يدرك ممن كانت آتية .. وكان يظل يقرأ من الصباح الى المساء ، ليس صحفا ، بل كتبا جدية ومؤلفات تاريخية . وكانت تلك القراءات الطويلة ، والساعات الصامته ، والوحدة التامة تناسب حالته النفسية . وكان يشكر لجيما انها أتاحت له ذلك كله عن غير قصد منها . لكنه عاد يتساءل : ترى أما زالت جيما حية ؟ .. وهل تجيب على رسالته ؟

وأخيرا وصلت الرسالة التى كان ينتظرها فى شوق ولهفة ، وقد لصق عليها طابع بريد أمريكى ، من نيويورك .. وكان العنوان مكتوبا باللغة الانجليزية . ولم يتعرف سانين على الخط فى أول الامر ، فانقبض صدره ، حتى لقد خشى أن يفض الرسالة . لكنه سرعان ما لمح التوقيع ، فأدرك انها واردة من جيما . وما ان قرأ الاسم ، حتى انهمرت الدموع من عينية . فقد كان تذييل الرسالة باسم « جيما » وحده ، دون ذكر أسم العائلة ، يبشر بأنها غفرت له . وفيما هو يبسط الورقة الناعمة الزرقاء التى كتبت عليها الرسالة ، سقطت منها صورة فوتوغرافية على الارض ، فأسرع يلتقطها ، ونظر **اليها** ، فاذا بالدهشة تمتلكه . فقد كانت الصورة تمثل جيما ، جيما فى صباها ، كما عرفها منذ ثلاثين عاما . وكانت العينان هما العينان ، والفم هو الفم ، والوجه هو الوجه .. وفى ظهر الرسالة ، قرأ سانين هذه العبارة : **« ابنتى ماريانا »** . وكانت الرسالة بسيطة ، وتفيض رقة ونبلا !

وكتبت جيما تشكر لسانين انه لم يشك فيها ، وانه أولاها ثقته . ولم تخف عنه انها تألمت بعد هروبه ألما شديدا قاسيا ، لكنها اكدت له بأنها ما تزال ، وستظل الى الابد تعد لقاءها به سعادة كبرى ، لأن هذا اللقاء منعها من الزواج بكلوبر ، **فكأن سانين هو الذى كان السبب غير المباشر فى زواجها بالسيد سلوكوم ، الذى هيأ لها السعادة منذ ثمانية وعشرين عاما ، وكفل لها حياة يسر ورخاء ، لأن متجرهما الكبير كان معروفا فى نيويورك كلها !**

وذكرت جيما فى خطابها انها قد رزقت بخمسة أولاد ، أربعة أبناء ، وابنة فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهى مخطوبة .. وانها ترسل اليه صورة ابنتها التى يجمع كل من يراها على أنها تشبه أمها تمام الشبه .

ولم تذكر جيما الانباء المفجعة الا فى آخر الرسالة . فقالت ان السيدة لينور ماتت فى نيويورك ، حيث صحبت ابنتها وصهرها ، وأنها عاشت الفترة التى عاشتها هناك ، سعيدة بسعادة أبنائها وتربية أحفادها . وقالت أن بانتاليون كان من المقرر أن يصحبهم الى نيويورك ، لولا أنه مات صبيحة يوم السفر .. « أما ايمليو ، ايمليو العزيز ، فقد مات هو أيضا ، مات ميتة الابطال ، فى سبيل حرية وطنه ، فقد قتل فى صقلية محاربا بين صفوف « الألف » ، تحت قيادة «غاريبالدى» العظيم . وقد بكينا فقد أخينا الحبيب بكاء سخينا ، لكننا كنا ، ونحن نبكيه ، نعتز به وسنظل نعتز الى الأبد .. ان ذكراه مقدسة فى قلوبنا .. لقد كانت روحه السمحة النبيلة تستحق اكليل الاستشهاد فى سبيل الوطن » .

وذكرت جيما فى ختام رسالتها أنه يؤسفها حقا أن حياة سانين لم تكن سعيدة ، **وانها تتمنى له طمأنينة الروح قبل كل شىء . وأضافت الى ذلك انه يسعدها أن تراه ، وان يكن الأمل فى مثل هذا اللقاء ضعيفا مستبعد التحقيق !**

***

ويستحيل على المرء أن يعبر عما شعر به سانين وهو يقرأ رسالة جيما . ذلك أن العواطف التى أحس بها كانت

أعمق وأقوى من أن يفصح عنها الكلام . ولعل الموسيقى وحدها هى التى تستطيع أن تعبر عن مثل هذه العواطف !

وأسرع سانين يجيب على رسالة جيما . فأرسل الى ماريانا سلوكوم هدية « من صديق مجهول » بمناسبة زفافها ، هى الصليب الصغير المصنوع من العقيق ، بعد أن رصعه بلآلىء ثمينة . وما كانت تلك الهدية لتؤثر على ثروة سانين ، رغم انها كانت ذات قيمة كبيرة . ذلك أن سانين كان ، خلال الاعوام الثلاثين التى انقضت منذ عودته من فرنكفورت ، قد أثرى ثراء كبيرا !

وعاد سانين الى بطرسبرج فى أول شهر مايو . ولكن أغلب الظن انه لن يمكث فيها طويلا . فالناس يؤكدون أنه يحاول أن يبيع أملاكه ، وأن فى نيته أن يسافر الى أمريكا !!

عزيزى القارىء ..

والان ، بعد ان استمتعت بقراءة النص الكامل لرواية « مياه الربيع » ، تعال نقرأ هذا الفصل الممتع من كتاب « اندريه موروا » عن حياة ترجنيف ، وفيه يحدثنا عن فنه القصصى ، وطريقته فى كتابة الرواية :

فن ترجنيف

لعل المساجلات الأدبية وسيلة من أعنف وسائل شغل الوقت وأشدها عقما وبطلانا ، ولو أنه بدونها ـ مع ذلك ـ تبدو الحياة للناس ، على قصرها ، طويلة باعثة على الضجر والسأم . وكان حريا بمشاعر النشوة والاستحسان التى يوحى بها أديبان مختلفا النزعات ، أن تكون أحاسيس متميزة متباينة ، لا مجال للقياس بينها أو المقارنة ، ولا تستطيع أن تنال من بعضها البعض بأية حال . لكن الأدب الروسى الحديث ـ كما كان الشأن فى القرن السابع عشر ، حين كان المعجبون بالشاعر الفرنسى « راسين » يتصرفون كالعشاق المتيمين الذين لا هم لهم الا أن يطردوا من أذهان خليلاتهم ذكرياتهن عن « كورنى » ! ـ قد أثار فى أوروبا الغربية طائفة من النزوات والأهواء العجيبة الساذجة . فقد كان هناك من شغف بـ «دوستويفسكى» وأحبه حبا متعنتا ، الا أن ذلك النفر من الناس ما كان ليتيه اعجابا به الا كيدا فى « تولستوى » ، وبالأخص فى « ترجنيف » !

وكما هى الحال فى معظم شئون الحياة ، يحدث دائما أن يحتجب وراء السخف السطحى شعور صادق عميق .. فالذى يستهوينا وندافع عنه لدى أديب من الأدباء ، ليس

عمله الفني فى ذاته ، وانما هو – فى واقع الأمر – ميولنا وأذواقنا الدفينة . ذلك أن اتجاهاتنا الأدبية وما نؤثره من كتاب وقراءات ، تحددها دائما احتياجاتنا الوجدانية والذهنية . فحين نلمح فى احدى الروايات صورة صحيحة دقيقة لما يتولانا من قلق أو نشعر به من صفاء نفسى ، سرعان ما ننظر الى الناقد المناوىء لروايتنا المفضلة على أنه عدو شخصى لنا !

وفى عالم القراء ورجال الأدب – على السواء – تتباين الأمزجة وتتنافر ، وهو أمر طبيعى للغاية ، بل لعله أمر سليم يدعو الى الارتياح . وانما العجيب حقا هو الاصرار على احالة هذه المشاعر الذاتية الى أحكام مطلقة لا مرونة فيها ولا تساهل . **فالذى يأخذ على ترجنيف مثلا ان قريحته لم تخلق ما أبدعه دوستويفسكى من روائع ، لهو أشبه بمن يبدى حسرته وأسفه لأن شجرة التفاح لا تستطيع أن تثمر خوخا !!**

ويقول أنصار تولستوى ودوستويفسكى المتعنتون : « اننا لو قارنا بين العوالم التى خلقها الروائيون الروس الثلاثة فى مؤلفاتهم ، لاعترفنا عن طيب خاطر بأن عالم ترجنيف مطابق تماما لطبيعة خالقه ، وانه لا يخلو من جلال يهز النفوس ، بل انه صادق مستمد من الحياة .. لكننا نرى – مع ذلك – انه عالم صغير ضيق الدائرة ، سرعان ما يفرغ المرء من ارتياده واستكشاف معالمه . وحسب القارىء أن يطالع روايتين من روايات ترجنيف ، لكى يلم بالاطار كله الذى تتحرك فيه شخصياته .. فهو يكاد يتألف دائما من بيت فى الريف الروسى ، يملكه أحد النبلاء المتوسطى الثراء ، ومن خزائن قديمة تزينها نقوش نحاسية ، ومقاعد كبيرة بيضاء بيضاوية الظهر ، وثريات بلورية تتدلى منها الأحجار الكريمة ، وسرير

ضيق ذى ستائر من القماش المخطط ، وسجادة بالية ملطخة بالشمع ! .. أما المناظر فتقع غالبا فى مقاطعة (أوريول) ، بين غابات اشجار السندر والحور ، تظللها الغيوم والأبخرة الكثيفة الدائمة .. وأما أبطال ترجنيف ، فهم نماذج ضئيلو العدد ، يتحدثون فى معظم الأحيان لغة واحدة . فمنهم الـ « هملت » الروسى مثل **« بازاروف »** و **« رودين »** ، ومنهم الشيخ الذى يعد من رواسب القرن الثامن عشر ، والثورى المفوه العاجز ، والموظف القانع الطموح !.. أما دنيا النساء عنده ، فلا تكاد تتجاوز فريقين أو ثلاثة . فبينهن الفتاة الوديعة الرقيقة ، التقية غالبا ـ مثل **« تاسيانا »** فى رواية **(الدخان)** ، أو **« ليزا »** فى **(عش النبلاء)** ـ والمرأة الجامحة المتقلبة ـ مثل **« ايرين »** فى **(الدخان)** ـ والعذراء القوية ذات العينين الرماديتين والانف المستقيم والشفتين الرقيقتين .. التى تنم عن رغبة عارمة فى الكفاح والتفانى ، مثل **« ماريان »** فى **(الأرض العذراء)** .. على أن هؤلاء الرجال الثرثارين الخائرى العزيمة ، والنساء المشبوبات العاطفة الكريمات النفس ، لا يشكلون الا عالما محدودا مغلقا ، ما أشد الفارق بينه وبين الشخصيات التى يجيد تحريكها تولستوى ودوستويفسكى .. ! »

***

وقد يكون أصحاب هذا الرأى على حق فيما يبدونه من وجهات نظر ، لكن الأمر الغريب حقا هو ما يأخذونه على عالم الفنان من انه ضيق محدود النطاق . **فقيمة العمل الفنى لا تقاس بأبعاده وأحجامه ، ولا بأهمية الشىء المعروض فيه . وما اشبه الذى يعتمد فى حكمه على هذه المقاييس بمن ينعى على رسامى مناظر الطبيعة الخامدة تفاهة موضوعاتهم ..**

ان شأنه فى ذلك كشأن الذى ينتقد رساما كبيرا لأنه لم يصور فى لوحاته الا حياة الأسر الفقيرة ، أو لم يتناول فى عمله الفنى سوى فريق ضئيل من الناس ينتمون جميعهم الى نفس البيئة ويمارسون عين النشاط ! .. فعظمة الفنان انما تتمثل — على العكس من ذلك — فى قدرته على الحد من حقل دراساته . وعلى هذا النحو قد تكفى لوحة صغيرة ، رسمت فى صدق واتقان ، لاعطائنا قدرا من الحقائق الانسانية لا تستطيعه لوحة ضخمة غير متقنة . وفى وسع الكاتب الروائى أن يصف وصفا صادقا ملامح وطباع ثلاثة أو عشرة من الألمان مثلا ، لكنه لا يمكنه ان يورد مميزات وخصائص ألمانيا بأسرها .. فليس من المهم اذن أن ترجنيف لم يضمن رواياته الا صورا لبعض الفلاحين فى ضواحى (سباسكوى) ، وانما الخليق بالأهمية انه استطاع أن يعطى من خلال كتبه صورة كاملة صادقة لروسيا فى عام ١٨٣٠ ، على نحو لم تفعله كتب التاريخ الطويلة التى وضعت عن تلك البلاد !

وفضلا عن ذلك ، فاننا اذا كنا نجد فى كل رواية من روايات ترجنيف — كما يزعمون — المرأة الجامحة النزوات ، وال « هملت » الروسى ، فان هذه الشخصيات لا تتشابه قط فى شىء .. ان « بازاروف » طراز من الرجال مخالف تماما لطراز « رودين » ، فهو صموت بقدر ما « رودين » ثرثار ، وهو ضارى الطباع ، قانط النفس ، قادر على الحب ، على عكس الشخصية الأخرى فى جميع معالمها .. و « لافريتسكى » بطل (عش النبلاء) قد يكون « هملت » آخر كذلك ، لكنه أكثر بساطة وأشد سذاجة . **وقد تجمع بين هذه الشخصيات جميعا سمات مشتركة — ولا مندوحة عن وجود هذه السمات — الا أن لكل منها طابعها الخاص المميز الذى رسم رسما دقيقا** . وربما تؤخذ على ترجنيف

– بشكل أكثر انصافا – الرتابة التى اتسمت بها شخصياته النسائية ، لكنه انتقاد خليق بأن يوجه أيضا الى روائيين مشهورين آخرين ، فمعظم الرجال يطارد تفكيرهم نوع معين من النساء لا يسعهم الا ملاحقته على الدوام !

كان ينتزع شخصياته من الواقع

والمأخذ الآخر الذى يعزونه الى ترجنيف انه لم يؤت قريحة خلاقة . وقد يبدو أنه يقرهم على ذلك اذ يقول : **« اننى لم استطع فى يوم من الايام أن أخلق شيئا مستمدا من خيالى وحده ، وانما أنا فى حاجة دائما ، عند رسم احدى شخصياتى ، الى انسان حى ! »**

وفى وسعنا أن نقف ، من خلال الكراسات والمخطوطات التى خلفها ترجنيف فى باريس ، على الطريقة التى كان يتبعها الفنان لاستيعاب واستخدام الكائنات الحية . فحين كان يشرع فى كتابة احدى رواياته ، كان يضع أولا قائمة بجميع الشخصيات ، وكثيرا ما كان الاسم الحقيقى للنموذج مبينا أمام اسم بطل الرواية . وبعد اعداد هذه القائمة ، كان ترجنيف يدون بيانات عن سيرة كل من شخصياته ، مضمنا اياها وصفا مفصلا لأبعادها الجسمانية والنفسية ..

والذين درسوا « الصنعة الفنية » التى انتهجها كبار الروائيين ، يعلمون أن ترجنيف كان فى ذلك متشابها معهم الى أبعد حدود التشابه . **فالخلق الفنى ليس خلقا من العدم ، وانما هو تجميع لعناصر منتزعة من الواقع** . ومن الميسور التدليل على أن أغرب القصص ، والتى بدت لنا أبعد ما تكون عن التأمل الواقعى ، مثل (**رحلات جوليفر**) ، و (**أقاصيص**) ادجار بو ، و (**الكوميديا الالهية**) لدانتى ، انما هى كلها مجموعة من الذكريات .

ولكن اذا كان الخلق من العدم أمرا مستحيلا ، فانه لمن الصحيح أيضا أن الروائى لا يستطيع أن ينقل من الطبيعة الا بصورة تقريبية . ويقول ترجنيف : « اننى واقعى » ، مؤكدا بذلك أن واجب الفنان ان يرسم بأمانة ما يشاهده . الا أن المشكلة فى الواقع أكثر من ذلك تعقيداً ، اذ أن النقل من الطبيعة أمر محمود فى ذاته ، ولكن ما هى الصورة التى يجب أن يكون عليها ؟ . . ذلك أن الطبيعة معين لا ينضب ، وهى متعددة الجوانب ، سواء فى الزمان أو المكان . وفى ذهن المرء ، تتلاحق فى ساعة واحدة من الصور والخواطر ما يكفى لملء مجلد ضخم . فاذا ما أردنا أن نروى فى مثل هذا المجلد سيره ــ لا لرجل واحد ، وانما لمجموعة من الرجال والنساء ــ صار من الواجب أن تتخلى نزعتنا الواقعية عن بعض مطالبها ، فتعمد الى الحذف والتنقيح والانتقاء !

فالفن ليس الطبيعة ، وانما هو الانسانية قبل كل شىء . والحاجة التى يشعر بها الناس نحو فن من الفنون هى حاجتهم بالفعل الى جعل هذه الطبيعة المعقدة واضحة مفهومة لعقل الانسان ، بأن يضفوا عليها أبعاداً ليست مرئية فيها .

ولابد للمرء اذن ، كيما يصدر حكمه على العمل الفنى ، (وذلك هو مذهب ترجنيف كله فى الأدب) ، أن يدرك أن فكرتى الواقعية والشاعرية غير متعارضتين . فالرواية لا تشبه الحياة ، اذ هى محدودة النطاق ، منسقة البناء ، مرتبة العناصر . لكن هذه الوحدة المتجانسة يجب أن تتألف من تفاصيل حقيقية ، وان تكون فى ذاتها مطابقة للواقع . ولم يحدث قط فى اية رواية من روايات ترجنيف أن بدا أحد الأبطال بمظهر من يقوم بدور من أدوار « الميلودراما » ! . .

مذهبه فى الوصف

ولكن اذا كان ترجنيف واقعيا بحكم ما يورده فى رواياته من تفاصيل صادقة ، فان انتقاءه لهذه التفاصيل هو الذى جعله فنانا عظيما . وقد سمعه « بول بورجيه » ذات يوم يلخص نظرياته فى فن الوصف بقوله : **« ان موهبة الوصف تكمن كلها فى الاختيار الدقيق للتفاصيل الايحائية .. ان الوصف يجب دائما أن يكون غير مباشر ، ويجب أن يكون ايحائيا وليس مرئيا ! »** .

فالاكتفاء بالتفاصيل الأساسية ، والجنوح الى الايحاء بدلا من التبيان والتصريح لهما من القواعد والاساليب التى تضفى روعة وقوة على الشكل الفنى فى الكتابة . ولقد قارن البعض بين فن ترجنيف والفن الاغريقى ، وانها لمقارنة فى موضعها ، اذ أن كلاهما يوحى بشىء متكامل ، بما يستخدمه من تفاصيل انتقيت انتقاء فائقا !

والملم بالطرق الفنية التى تكتب بها الروايات ، لا شك يعجب كيف استطاع ترجنيف ، بكتبه القصيرة المقتضبة ، أن يثير فى نفس القارىء هذا الاحساس القوى بطول زمن القصة وتكامل جوانبها . ولو حللنا « الصنعة الفنية » عند ترجنيف ، لوجدنا أنها تطوى فنا فى بناء الأحداث بالغ الروعة . فالأحداث فى رواياته تجرى دائما فى لحظة أزمة .. وعلى خلاف كتاب مثل « مريديث » و « جورج اليوت » وحتى « تولستوى » ذاته ، الذين يحلو لهم أن يرووا قصة بطلهم منذ أيام طفولته ، نجد أن ترجنيف يتصدى لموضوعه دفعة واحدة . فرواية **(آباء وأبناء)** تجرى حوادثها كلها فى أسابيع قلائل ، وكذلك **(الحب الأول)** ، كما ان رواية **(الدخان)** تبدأ عند اللقاء ببطلة القصة « ايرين » .. وبعد أن يندمج القارىء بمشاعره

فى أحداث الرواية – وبعدئذ فقط ! – يعود به الكاتب القهقرى ، فيسلك معه بعض الدروب التى يرى ضرورة ارتيادها !

وحين يطالع المرء روايات ترجنيف ، تتبادر الى ذهنه على الفور « وحدة الزمان » التى كانت شرطا من شروط التراجيديات الكلاسيكية الفرنسية .. **وان ترجنيف لكلاسيكى كبير بالفعل ، بل انه – شأن كبار الكلاسيكيين – لا يكاد يحفل بحبكة روايته** . فهو – مثل « موليير » الذى كان يعالج فى مسرحياته موضوعات معروفة متداولة – يريد أن يرسم قبل كل شىء معالم شخصية من الشخصيات ، أو يصور لونا معينا من الأحاسيس . وهو – مثل موليير أيضا – يكتفى بايراد نوع من المقابلة بين شخصياته . فالمرأة الخطرة مثل « فارفارا » أو « ايرين » ، تقابلها الفتاة الطاهرة النقية مثل « ليزا » أو « تاسيانا » .. والفنان يقابله الرجل العملى المادى .. والآباء يقابلهم الأبناء .. الخ .

بين الواقعية والشاعرية .. والذاتية والموضوعية

على انه لا يكفى عند التحدث عن فن ترجنيف وصفه بأنه فن « واقعى » ، وانما لا بد من التنويه بأن ترجنيف كان ذا واقعية شاعرية . ذلك انه من المتعذر على القارىء أن يفكر فى احدى روايات ترجنيف دون أن تداعب خياله صورة كبرى للطبيعة ، تختلط فيها المناظر الطبيعية بالعواطف والمشاعر .. والفنان الذى يتميز بواقعيته الشاعرية يدرك أن حياة الناس ليست مجرد طائفة من التفاصيل التافهة

الرخيصة ، وانما هي حافلة أيضا باحساسات القلق والمجهول وخيبة الأمل . فالحلم جزء من الحقيقة ، وتجاهله وتعمد استبعاده من شأنهما ان يجردا هذه الحقيقة من صورتها الانسانية !

وقد كان ترجنيف يعتقد أن أية صورة من صور الحياة خليقة بأن تكون ناقصة مشوهة ، اذا جاءت خلوا من المشاعر الرقيقة ومن بعض خلجات السعادة .

وهذه الملامح التى اتسم بها فن ترجنيف قد تلقى فى الروع — للوهلة الأولى — ان فن الأديب الروسى الكبير انما هو ذاتى قبل كل شيء .. على أن ترجنيف كان يرى — على نقيض ذلك — ان من واجب الروائى أن يكون موضوعيا ، « وان يتوارى دائما خلف أبطاله ، فلا يفته قط أن يقطع الحبل السرى بينه وبين شخصياته ! » .. وقال ذات يوم لشاب كان يريد أن يكرس حياته للأدب : « اذا كانت دراسة الطبيعة البشرية وحياة الآخرين تعنيك أكثر من التعبير عن مشاعرك الذاتية وآرائك الخاصة ، واذا كان يطيب لك أن تصور — فى صدق واتقان — قسمات .. لا الانسان فحسب ، وانما أيضا أى « شيء » عادى ، أكثر مما يلذ لك ان تعبر لنفسك فى بلاغة وحرارة عما تحسه عند رؤية هذا الانسان أو ذلك الشيء ، فان هذا يعنى انك كاتب موضوعى ، وان فى وسعك أن تشرع فى كتابة اقصوصة أو رواية ! »

ويبدو أن هذا المذهب — الذى كان مذهب « فلوبير » أيضا — يناقض الطريقة التى يسير عليها اليوم الروائيون المحدثون . فمعظم هؤلاء الروائيين يصورون بشكل ذاتى للغاية الاحاسيس المتولدة عن حدث خطير ، وذلك بتحليل

هذه الأحاسيس ، بدلا من وصف الأحداث التى أدت اليها .. والواقع أن المذهبين لا غبار عليهما . اذ فيم الاختيار بين الكاتب الموضوعى والكاتب الذاتى ، طالما ان هناك أكثر من وسيلة للايحاء بالحقائق الانسانية ! ؟

على أن الفنان ، بالغا ما بلغت نزعته الموضوعية ، لا يمكنه مطلقا أن يمنع شخصيته من التدخل فى عمله الفنى . فالانسان يتميز عادة بعدد من المسائل التى تشغل تفكيره ، وهى لا تنفك تنكشف وتبرز رغما عنه .

ثم أن ترجنيف ما كان ليمتنع عن تأمل ذاته ، فقد كان يرى أن الفنان يجب أن يعتبر كل شىء ـ حتى ذاته ـ موضوعا للتأمل . وفى هذا يقول : «يجب على الكاتب الا يدع الألم يسحقه ، وانما من واجبه انيستخدم كل شىء فى كتابته .. ان الكاتب رجل متوتر الأعصاب ، وهو يحس أكثر مما يحس الآخرون ، ولهذا وجب عليه أن يتحكم فى نفسه ، وأن يراقبها دائما كما يراقب الآخرين !» . ومن هنا ، يتضح أنه كان ذاتيا وموضوعيا فى آن واحد ، اذ لم يكن يميل الى الأخذ بأى منهج أو مذهب بعينه فى الكتابة ، بل كان يعتقد أن الحرية شىء ضرورى للفنان ، وان الكاتب لا ينبغى أن يكون مخلصا الا لنفسه ، وليس لأى مذهب من المذاهب !

وكانت ثمة مسألة لا يتساهل ترجنيف فى شأنها بأية حال من الاحوال . **فقد كان يؤمن ايمانا راسخا بانه ليس من واجب الفنان محاولة أثبات نظرية معينة فى عمله الفنى ،** على اعتبار ان الفنان والرجل الاخلاقى يختلفان اختلافا كليا فيما يؤديانه من رسالة ..

فلسفة ترجنيف

كتبت احدى السيدات يوما الى ترجنيف تخبره بأنه مطلوب من ولدها أن يعد موضوعا عن فلسفة ترجنيف ، وتسأله أن يمده ببعض نصائحه فى هذا الشأن . ودهش الروائى الروسى الكبير ، وتولاه حرج شديد ، فلم يكن يدرى أن له فلسفة على الاطلاق ، بل كان يحسب أن الفنان انما هو متفرج قبل كل شىء ، اذا زج بنفسه فيما يدور أمامه من مشاهد الحياة ، سقطت عنه الى حين صفته كفنان . وقد يستعيد فيما بعد ، فى ظل الهدوء والسكينة ، الأحاسيس التى تملكته أثناء العمل ، وقد تستحيل هذه عندئذ الى مادة فنية يمكنه أن يستخدمها فى انتاجه ، الا أن الكفاح من أجل الافكار المجردة كان يبدو دائما لترجنيف بالغ الخطر على الكاتب . وقد كتب ذات مرة فى هذا الصدد يقول : « اننى حين لا أرى أمامى أشكالا ملموسة ، أشعر بالضياع التام ولا أدرى أية وجهة أسلك !.. انه يبدو لى دائما أن هناك من يستطيع أن يؤكد بنفس القوة والصدق الرأى المعارض لرأيى . **أما اذا تحدثت مثلا عن أنف أحمر أو شعرة بيضاء ، اذ ذاك تكون الشعرة بيضاء والأنف أحمر فعلا ، وما من منطق يمكن أن يغير من هذه الحقيقة شيئا ! »** .

وقد كتب يرد على السيدة التى سألته أن يلخص لها فلسفته ، قائلا : « سأقول لك باختصار اننى ، قبل كل شىء ، رجل واقعى لا يعنيه سوى الحقيقة الحية للوجه الانسانى .. اننى لا أحفل بكل ما هو خارق ، ولا أومن بالحقائق أو المناهج المطلقة .. **اننى شغوف بالحرية أكثر من أى شىء فى الدنيا** ، كما اننى ـ فيما أعلم ـ شديد التأثر بالعظمة

والجلال .. ان كل ما هو انسانى عزيز على نفسى ! » .

وكان رده أمينا صادقا ، يلخص أروع تلخيص اتجاهه الفلسفى بأكمله ، وهو من أندر النصوص الايجابية التى يمكن أن تستشف منها نظرة ترجنيف الى الحياة .

كان متشائما

وليس من شك فى أن ترجنيف كان متشائما ، على الأقل فيما يتعلق بعالم القوى والأشياء . وعنده ان الايمان بأن الطبيعة خيرة ، لهو ضرب من الجنون . فالطبيعة ليست بخيرة ولا بشريرة ، وانما هى عديمة الاكتراث !.. انها تخلق كائنات ، دون أن يعنيها المصير الذى ستنتهى اليه هذه الكائنات .. انها تخلقها حتى تحارب بعضها بعضا ، وهى تضع فى أيديها أسلحة القتال ، وتقوى الجانبين فى غير مبالاة .. انها أشبه بالحكم الأعلى الذى يشهد حربا أبدية ، بامداده الجيشين المتعاديين بالأسلحة والذخائر !! »

ومما يذكر أن ترجنيف كان قد شهد ذات مرة أثناء طفولته معركة بين حية وضفدع ، فتكونت عنده منذ ذلك الحين بذرة الكراهية لكل المعارك الطبيعية . ولم يفلح مشهد الحياة الانسانية فى تغيير الأفكار التى رسخت فى ذهنه وهو طفل.. **وكان الكون يلوح له وكأنه محكوم بقوى جبارة ، لكنها قوى لا تعى ولا تكترث مطلقا بالقيم التى تهم الانسان ، مثل الخير ، والعدالة ، والسعادة** . وكان طبيعيا الا تكون العقلية التى تعتنق مثل هذه المفاهيم عقلية دينية . فلم يكن ترجنيف يعتبر الناس فى نطاق الكون أكثر أهمية من النمل ..

ولعل أقوى احساس شعر به ترجنيف فى أعماقه كان ضآلة الانسان وتفاهته أمام عظمة الأشياء . ولو قدر للناس أن يقيسوا ويتأملوا اللانهائية ، لبدت لهم عندئذ جميع

جهودهم عقيمة ضائعة ، وأنهم ليتألمون ويتعذبون لكى يكون مصيرهم النهائي الموت الذى هو فى ذاته شىء تافه !.. حقيقة أن الحب يمنح أحيانا بنى البشر التعساء احساسا خارقا بالقوة والعظمة والأهمية ، الا أن الحب نفسه لا يخرج عن كونه صورة من المعركة الأبدية .. يقول ترجنيف : « **ليست فى الحب مساواة .. كلا ، فهناك سيد واحد وعبد واحد ، ولعل هذا ما حدا بالشعراء الى التحدث عن أغلاله وقيوده ..** وستدرك يوما كيف أن هذه الأغلال البادية الرقة تعذب النفس وتحطم القلب .. سوف تتبين مدى الكراهية التى تختفى وراء أشد أنواع الحب عنفا ، وستتنهد كالمريض الذى فقد صحته وراحته .. ستعرف معنى أن يكون الانسان تابعا لامرأة ، وستشعر بمبلغ الخزى والعار الذى ينطوى عليه هذا الاستعباد .. ! » .

***

على أن التشاؤم عند ترجنيف كان نابعا — على الأرجح — من عقله ، وليس من قلبه الذى كان بسيطا عادلا .. ولقد كان على حق حين قال انه لم يخلق للأفكار المجردة ، وانه لا يشعر براحة النفس الا عند تصويره للعالم الواقعى المحسوس الذى كان يشعر بجماله وتنوع جوانبه . فاذا كان عالم القوى يبدو بلا رحمة لترجنيف ، فان هذا ليس شأن الكائنات البشرية التى تستطيع أن تتأثر بعواطف الصداقة والحب والجلال . وعلى هذا النحو ، نجد أن المحبة والثقة تحتلان مكانة كبيرة فى روايات ترجنيف ، بمجرد أن يتصدى لتصوير طائفة من بنى البشر . فهو يحب الناس ، وبشكل أعم ، جميع الكائنات الحية ، ويعجب بالحماس الذى يمضى به الانسان والحيوان — فى هذا الكون الأعمى الشديد العداء —

فى تكوين « واحات » من الألفة والحنان !.. **لقد شيد الناس عالمهم الصغير داخل العالم الكبير عديم الاكتراث ، وتلك هى الفلسفة الحقة عند ترجنيف الذى لم يكن يقدر شيئا فى حياته مثل المحبة والشجاعة** . ومن هنا نشأ حبه للفلاحين الروس ورجال الماضى ، وجاءت كتبه زاخرة بالشخصيات الطيبة الصالحة التى تفيض رقة وحنانا ، والتى ما كان ليرسمها قلم رجل متشائم . الا أنه لا يمنح محبته الا للقوم البسطاء ، ولا يسبغ السعادة الا على أولئك الذين ارتضوا أن يعيشوا حياة الزهد والتواضع ..

الايمان عند ترجنيف

وقد أخذ ترجنيف على العلوم والثقافة انها تنشر أفكار الدين ، وتبعد بذلك طبقة المثقفين عن الفضائل التى أوجدتها التقاليد المسيحية المتعاقبة ، كفضائل الايمان ، والمحبة ، وانكار الذات ، التى كان ترجنيف يرى أنها لم تعد تشمل الا القوم البسطاء دون غيرهم . وكان يقول : ((**ان من أوتى الايمان ، ملك كل شىء ، ولا يمكن أن يفقد شيئا . والذى لم يؤت الايمان ، لا يملك شيئا** .. وانني لأحس بقوة هذه الحقيقة بقدر ما انتمى الى أولئك الذين لا ايمان عندهم !)) . ومن هنا ، كانت ترسخ فى أعماقه بعض رواسب الماضى ، وشىء أشبه بالنزعة الدينية أخفى حقيقتها تشاؤمه الزائد ! على أن تلك النزعة الدينية ما كانت لتأخذ عند ترجنيف صورة أية عقيدة ايجابية ، وانما كانت مجرد عقيدة من العقائد . ذلك أنه كان يرى أن الانسان يتعين عليه أن يمارس نوعا من الايمان ، كيما يحتفظ فى سن النضوج بجانب من تلك القوة الخارقة التى تمنحه اياها أوهام الشباب فى مستهل حياته . فالسعيد هو الذى يحتفظ بقلبه الشاب حتى

الشيخوخة، دون أن يفقد ايمانه بالمحبة وقوة العزيمة وقيمة العمل !

وهكذا انتهى الأمر بترجنيف المتشكك الى الدعوة الى الايمان والاشادة بالمؤمن . على انه ليس فى هذا أى نوع من التناقض ، فالواقع أن التشكك الذى أظهره ترجنيف لم يكن الا تشككا سطحيا ، اذ كان يملأ أعماقه من العقائد ما يكفى لجعل الحياة رائعة خلابة ، ويكفل له أن يعيش حياة الصديق الوفى والفنان الحق . **وكان ترجنيف أشد ما يكون بغضا للمغالاة ، والنفاق ، والحماس المفتعل ، والمشاعر المصطنعة ، وقد ظل طوال حياته يكافحها باسم الحقيقة والصدق .** ورغم التشاؤم الذى تنطوى عليه بعض رواياته ، فانها لا تلقننا درسا فى اليأس وتثبيط العزيمة ، وانما تبث فى نفوسنا حب البساطة والتواضع !

اننا نجد فى كتب ترجنيف ، الحياة كما نحس بها فى قلوبنا .. حزينة ، متقلبة ، غامضة . وهى لا تترك فى أعماقنا — مع ذلك — أى احساس بالضغينة أو خوار الهمة ، بل شعورا دافقا بالجمال .. اننا ما أن نفرغ من مطالعة أحدها ، حتى نلقى أنفسنا مستغرقين فى أحلام تتلاحق فيها صور غابات تغمرها أشعة الشمس، ونساء فاتنات يحركن المشاعر ، وآباء يفيضون رقة وحنانا ، ومراهقين استبدت بهم الحيرة والأهواء .. **لقد أدرك ترجنيف أن الحياة قاسية لا ترحم ، فلم يحاول أن يضفى عليها تفاؤلا زائفا مفتعلا . على أنه لم يفقد ثقته لحظة واحدة فى الطبيعة البشرية ، بل كان على يقين من أن من يحاول أن يسبر أغوار أشد النفوس جنوحا الى الشر ، لا بد واجد فيها — مع ذلك — جانبا من الاحساسات النبيلة الطاهرة !**


ايديال
ثلاجة ٩ قدم
ثلاجة
العمر

مياه الربيع

فى الجزء الأول من هذه القصة الخالدة ، الذى صدر منذ أسابيع ، رأينا كيف التقى بطل القصة "سانين" أثناء رحلته فى المانيا ، بالحسناء الايطالية "جيما" ، فتعلق بها قلبه منذ اللحظة الأولى .. لكنه لم يلبث أن عرف أنها مخطوبة لأحد رجال الأعمال الألمان ! .. وهنا يتدخل القدر فيصنع المعجزة ، حين يوجه أحد السكارى إهانة إلى الخطيبة فى مطعم عام ، فلا يتحرك خطيبها لرد الإهانة ، وإذ ذاك ينبرى "سانين" لموجه الاهانة فيدعوه إلى المبارزة ! .. وعند هذا الحد وقف بنا الجزء الأول من القصة والشاب منطلق إلى مكان المبارزة التى قد يفقد فيها حياته دفاعا عن شرف الحسناء التى .. أحبها !

وفى هذا الجزء الثانى والأخير من القصة ، نتابع أحداثها الشائقة ، ثم نفاجأ بدخول عنصر نسائى جديد فى القصة ، هو الثرية الروسية التى .. عشقت "سانين"

فأى المرأتين تنتصر .. وتفوز بالرجل ؟

.. وماذا يكون مصير العاشقة المهزومة ؟ .. وكيف تنتهى هذه القصة الرائعة ؟

ذلك ما أتركك تستمتع بقراءته بنفسك ..



مطبوعات كتابى